مجموعة قصص بالفارسية

حارتنا القديمة

نعمت حسيني

ترجمة: حامد حبيب

مجموعة قصصية

حارتنا القديمة

نعمت حسيني

ترجمة: حامد حبيب - مصر

الكتاب : حارتنا القديمة
الكاتب : نعمت حسيني – أفغانستان
المترجم: حـــامد حبيب ـ مصر
الطبعة الأولى : ديسمبر 2024
لوحة الغلاف : (تصميم الربيع)
تصميم الغلاف : (الربيع)

الإخراج الداخلي : مطابع الربيع
13 شـارع القوميـة ـ الزقـازيق ـ ت مكتـب 0552379677 موبايـل 01064063063

للتواصل مع المترجم: موبايل: 01211912154

رقم الإيداع الترقيم الدولي
2024/17141
978/977-94-0083-6

يحظر النقل أو الاقتباس أو النسخ أو التصوير بأية وسيلة طباعية أو اليكترونية دون إذن من الكاتب أو الإشارة إلى الكتاب ومؤلفه وناشره

إهداء

إلى سليمان.. ابني الوحيد الصابر
وإلى على، طفلي الجميل الصابر
وإلى كل أطفال وطني الحلوين الصابرين
ولكل من نظر إلى مرارة الحياة ومصائبها فبكى.

الكاتب في سطور

الاسم : نعمت حسيني
•باحث وكاتب قصص مشهور في أفغانستان

_وِلدعام ١٣٣٨ هـ في "نواب باغ" في كابول، وأكمل تعليمَه الابتدائي في مدرسة "سردار جانخان"، والتعليم الثانوي في مدرسة "الحبيبية الثانوية"، ثم أكمل تعليمَه العالي في معهدِ كابول لتدريبِ المعلمين.
•بعد أن أنهى تعليمَه العالي، عمل مدرساً في إحدى مدارس كابول لمدة ثلاثة أشهر، وبعد أداء الخدمة العسكرية نهاية عام ١٣٥٩هـ ، انتُدبَ إلى قسم الفنون والأدب بإذاعة أفغانستان[*] ،فقام ببث برامج عليها، فمثلاً، كتب وأنتج "رسالة القلم" و"مجلة راديو" وما إلى ذلك، وكان لسنواتٍ طويلة مسؤولاً عن كتابة محتويات بعض البرامج، مثل برنامج "سبع برتقالات " الذي يُبَث مساء كل يوم خميس، كما قدم برنامجاً تلفزيونياً شيقاً ومذهلاً ونقدياً بعنوان "المرآة" إلى التلفزيون الأفغاني، والذي حظيَ باهتمامٍ كبيرٍ من المشاهدين.

•بدأ كتابة القصص القصيرة منذ عام ١٣٥٩هـ، ونشر بعضَها في صحافة البلاد، وفي عام ١٣٦٤هـ، كتب مجموعة قصصية باسم "سكوت هجر" تم نشرها من قِبَل لجنة النشر الحكومية. كما تم نشر مجموعاته القصصية الأخرى بعنوان "دموع وتابلو" و"الطريق الرمادي".

_كما كان له كتاب شهير بعنوان "وجوهٌ وأصوات"، وهو عبارة عن سيرة ومقدمة للمثقفيين الأفغان، يستخدمه حاليا الباحثون والمثقفون الأفغان.

وفي مقدمة هذا الكتاب كتب العالم الأفغاني الجليل السيد واصف بختيري : "أذكر أنه قبل ثلاثين عاماً، كان الخطاط الجليل والعالم النبيل (روانشاد سيد محمد داود حسيني) منهمكًا في إعداد السيرة الذاتية للخطاطين الأفغان، حتى يتمكن من إرسال نتاج عمله إلى الباحث الإيراني (مهدي بياني)، ولحسن الحظ، وهو من عائلة مشهورة التي يرتبط اسمها ارتباطًا وثيقًا بالخط والشعر والصحفي وظهر كاتب واسع المعرفة ومجتهد، علق سراجاً من رواق أجداده، ومزج عمله وفكره بالأعمال والمقالات الثقافية..

(يقصد نعمت حسيني)

و"كتابة المذكرات" لها تاريخ طويل في أفغانستان، وفي هذا القرن ظهر العلماء والباحثون مثل (مالك الشعار قاري عبد

الله، أستاذ قاشد، أستاذ خليل الله خليلي، محمد إبراهيم خليل، عبد الباقي كريمي، محمد علم غواز، محمد طاهر بدخشي، مير عبد الكريم حسيني بدخشي، غلام حبيب نوابي، محمد حنيف حنيف). لقد قام بهذا العمل(عزيز سودة) وآخرون، والكتاب ألفه (نعمت حسيني).

وتجدر الإشارة إلى أن موسوعة الأدب الفارسي (المجلد الثالث) للأدب الفارسي في أفغانستان قد استفادت كثيراً من هذا العمل الثمين.

ويكفي بالاطّلاع على موسوعة الأدب الفارسي (الأدب الفارسي الأفغاني) التي أصدرتها وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي في طهران، معرفة أن أحد المصادر الرئيسية لمؤلفي هذه الموسوعة يدور حول حياة وأعمال الكتاب والشعراء الأفغان المعاصرين، إنه في الواقع كتاب الصور والأصوات لنعمت حسيني". [بارف وزاغ]

•نعمت حسيني_أيضاً_ مقيم في ألمانيا وتنشر مقالاته في معظم المطبوعات الأجنبية

قراءة نقدية للمجموعة القصصية
"حارتنا القديمة"
للكاتب / نعمت حسيني _أفغانستان
بقلم : حامد حبيب _مصر

الكاتب / نعمت حسيني في مجموعته القصصية "حارتنا القديمة / زقاقنا القديم" رسم صورةً حيّةً لما آلت إليه البلاد في عهد طالبان ، حيث ركّز على نقاطٍ أساسية في تلك المجموعة تتمثّل في:

تغيير العلاقة بين الشعب والجيش.. حيث أن الشعب الأفغاني مشهورٌ بجرأتِه على مرّ العصور، ويشهد على ذلك حروبه ضد الانجليز والروس.. حينها كانت حرباً حقيقية، فيها جهادٌ شرعيّ للزَّود عن البلادِ والعقيدة. ولما جاءت طالبان إلى سُدّة الحكم، راحت تخوضُ حرباً ضد أبناء الشعب باستخدام ابناء الشعب.. فلم تكن حرباً ضد أعداء الوطن، ولم تكن حرباً شرعيةً جهاديةً في سبيل الله والوطن، بل خاضت حرباً داخلية

ضد الشعب، في محو تراثِه وتاريخه، فهدمت وخرّبت وأطفأت هذا الوهَج الذي تميّز به هذا البلد،والتي ظلّ لحقبٍ طويلةٍ اساساً للمعارف الإسلامية، في الفلسفة والتفسير والفقه والموسيقى وعلوم اخرى،في بلدٍ ثريّ بثقافاتِه وعلومِه وآدابِه وموروثاتِه التليدة.. خاضت حرباً ضدَّ النسيجِ الاجتماعي للوطن، فوضعت قوانيناً وتشريعاتٍ تخالف الدينَ الحقيقي، فحرمت الفتيات من التعليم، ويتّمت اطفالاً ورمّلت نساءً، وقضت على ولدان في بدء الشباب بإقحامهم في حربٍ غير شرعية، لتجعل من البلاد خراباً، بدلاً من التشييد والعمران والتنمية وإطلاقِ الحرياتِ والإبداعات والسيرِ في خُطى التنوير، وكل هذاتحت ستار الدين البرئ من سوءِ فهمِهم وأطماعِهم في السلطة فحسب.

.....

لقد جسّد الكاتبُ في قصتِه" حارتنا القديمة /زقاقنا القديم) عدة صور، من خلال زقاقِه القديم، وهي صورٌ صالحةٌ للتعميم على سائر البلاد، من حيث هي قوانينٌ تُطبَّق على الجميع، فما يجري في الزقاقِ ويحدث به،يحدث في غيره. وهي قصة تحكي عن طفلٍ نشأ في كنفِ ابيه، وتعلّم صنعة تصليح الدراجات،

عندما وصل سنَّ الزواج المتّبع لديهم والذي يبدأ من خمسة عشر عاماً، خطب له ابوه، وعندما جاء صديقُه الحميمُ لتهنئتِه يوم زفافه ، وجد طالبان قد أخذت الفتى للعسكرية، وبعدها جاء الفتي قتيلاً.. وانه لم يكن هذا الفتى وحده على هذا الحال، بل كان هو النظامُ المتّبع من طالبان لتواصل بهم حربها الوهمية ، بعد أن راح ضحيةَ حربِها الكثيرُ من الرجال، فتيتَّم الأطفالُ وترمَّلت النساء، وتوقَّف النشاطُ الاقتصادي للسكان، وغشي الحزنُ البيوت، واقفرَت الحياةُ وتوقفت، حتي الكلابُ في الشوارع لاتجدُ ماتقتاتُه،

وخلَت الشوارعُ القديمةُ المشهورةُ بنشاطِها وازدحامِها وعلاقاتِها الودودة، فصارت الشوارع قبوراً موحشة..ويسند

إلى بطل القصة (صديق ابن خليفة عطا)_العريس الذي اخذوه ليلة زفافه_ليجعل الكاتبُ على لسانه حدوتة أفغانستان الحالية من خلال الزقاق : كيف كانت في نسيجها الاجتماعي؟_ كيف كانت في نشاطِها الاقتصادي؟ _كيف كانتفي تراثِها وعمرانها ؟ ليروي قصةَ الماساة الأفغانية عن كثَب: الصغار الذين لبسوا زيّ الجندية، ولم يعرفوا هم وذويهم إلى اين وجهتُهم، ولا لماذا أُخِذوا؟ ولاطبيعةُ الحرب التي يخوضونها؟

وكيف صاروا ضحايا التوحُّش والاستبداد الطالباني ، فقُتل الآلافُ منهم دون ذنب ؟ والاثرُ النفسي والسلبي الذي اصاب ذويهم، إذ قَتلوا فلذاتِ اكبادهم، وأثر ذلك أيضاً على حركةِ البلد الاقتصادية، حيث أُغلقت اغلبُ المحلات، وتوقفت انشطة عديدة؟ وتخريبهم للديار وعنفهم ضد الأهالى في تعبيرٍ عن مدى قسوتهم ووحشيتهم؟ وتبقى على لسان البطل تلك الذكريات الجميلة بين الماضي والحاضر، كان الكاتبُ من خلالها يختزلُ فيها البكاء على وطنِه، وحنينِه لعطرِه القديم، ومدى انتمائِه وعشقِه لبلده، من خلال الرغبة المستمرة والمُلحّة لدى بطلِ القصة في زيارة زقاقِه القديم، رغم رحيله عنه منذ زمن طويل، ومدى تشبُّثه به وبأهلِه وملامحه، وكل شئ فيه، ليصطدمَ دائماً بمحو الصورةِ التي كان عليها تماماً.

إنها قصةٌ تجسّد انينِ الكاتبِ _رغم غربته_تجاهَ وطنِه المتمثِل في هذا الزقاق. لذا كتبها معبّراً عن حالةِ الحنينِ

والألم.الحنين للذكرياتِ القديمة (تاريخ/تراث/نسيج اجتماعي)، والألم لما آلَ إليه وطنُه من خرابٍ شامل، وطمسٍ لهويّته.

•وفي قصّتِه "كنتي تنتظري" يركّزُ على نقطةٍ هامةٍ تخُصُّ المرأةَ الأفغانية، وعن تلك المرأةِ التي رغم مساوئ زوجُها، لكن لأنه ذهب الدفاعِ عن الوطن، أجلّتهُ ، وحين افتقدته طويلاً، سعت للبحثِ عنه، ولم تتخلَّ عنه وفاءً، ومحاولة للعثور عليه لأجلِ ابنِها الذي بالتأكيدِ يفتقدُ أباه،و يعنيه أن يعرف مصيرَه.

•وهو مادارت حوله قصة"امرأة ".. عن تلك المرأة التي مرّت بظروفٍ صعبة للبحث عن زوجها المحارب، حتى
أنها لجأت لزيارة الأضرحة، وسعَت عبر كلّ السبل للعثور عليه، لتكتشفَ في النهايةِ موته.

•وعن الذين فقدوا أبناءهم إثر الهجوم الوحشي لطالبان على بيوتهم، كما في قصة" سكرتير مدرستنا".
كانت هموماً كثيرة يعاني منها الشعب الأفغاني، جسّدها الكاتبُ في براعة.

أحيي الكاتب على اسلوبه في تناول قصصه بهذا الكمّ الهائل من صدق المشاعر، وايضاً، سلاسسة اسلوبه في التناول، وفي رسم الصور التى تجسّد المعنى الذي يرمي إليه في جلاءٍ ووضوح.

المترجم

(١)

" امرأة"

قلبي مع نساءِ وطني الّلاتي بكَيْن، وما زِلن يبكينَ..

لقد وضعَتكَ والدتُك بجانبِها وألقمتْكَ ثديَها، وهي تجلسُ تحت المقعدِ البارد، وهي تفكرُ بعُمق ، على الرغمِ من أنَّ النومَ يُلقي الثقلَ بظلالِه على جفنَيها المتعبَين والمكتئبَين، لكنها لا تخشى ان تظل هكذا لبضعةِ أيام. بمجرد أن تنظرَ إلى الشمس، وهي تسلّطُ نورَها من أعلى السطحِ وتفسحُ المجالَ ببطءٍ لظلامِ الليل.. ينبضُ قلبُها، ويسقطُ خوفاً ورعباً، ويقبضُ على روحِها كالكابوس، وقلبُها ينطق بالشهادة.

إنه شئٌ مؤلم!

لقد حدث ذلك مرة أخرى. فقد كان ذلك قبل بضعِ سنوات، ويحدث في ذلك الوقت أيضًا.

مع تحوُّلِ الفضاءِ إلى اللّونِ الرّمادي وحلولِ الليل، وقلبها في صدرِها ينبض، ويلتفُّ حولها الخوفُ من وجودِها في مثلِ شبكة العنكبوت هذه ، ويتغير لونُها.

تقفز.. فسألها زوجُها الذي رآها على هذه الحالة:

ما حدث لك!؟ لماذا أنتِ مُستاءة ؟

وهي تبحثُ في عقلِها الجريحِ عن إجابةٍ لسؤالِ زوجِها الذي لم يأتِ في مثل هذه الليالي.

في تلك الليلة ، كان هناك عدَّةُ بنادق في متناول اليد.

كلماتُ (برلاب) كلماتٌ ليست في الكتابِ المقدَّس ولا في التوراةِ ولا في القرآنِ ولا في أيِّ شيء..خرافاتٌ لم تقرأها. من بابِها و جدارِها وقع الطاعون و بعد (تالشي خانا) كأن زوجَها أخذها مع بعضُ كتبه، وهو في تلك اللحظة كان لديه شَعر. ولكن تم لكمُه في رأسه وسُمِع أنينُه، وكانت شجرةُ السنطِ قد غطت بيتَهم.

*****

كانت والدةُ (بارات) امرأةً شِبهُ حضريّة وشبهُ ريفية، على الرغم من إصلاحِ طُرُق وآبارِ المدينة لم تكن تعلم، ولكن من الليلة التالية، من أذان الصبح حتى صلاة العشاء، تخرج من المنزل

من هنا إلى هناك، ومن هذا الباب إلى ذلك الباب، كانت تتجوّل وتذهب، حتى تعثر على دليلٍ أوأثر لزوجها. ذات يوم، كانت (كُلثوم) مرافقةً ل (راتا) في الطريق، كانت تمشي في الطريق وهي كسولة. عند المشي، يهتز اللحم الزائد من جسد كلثوم، فقد كانت امرأة سمينة، إلخ..

عندما تأكل تكون بطنُها منتفخةً وتبدو وكأنها حامل. لكنها لم تكن حاملاً، كان لديها _فقط_الكثير من الدهون الزائدة تحت جلدِ بطنها، ولهذا السبب، كانت تمشي ببطءٍ شديدٍ مرةً إلى اليمينِ ومرةً إلى اليسار.. احتفظت لنفسِها ببعضِ المُستلزمات، وكانت تمشي مثلَ البطَّة. كانت تقوم بغسيل الملابس، وكانت تزور منازلَ بعض المسؤولين في بعض الأحيان، وكانت تأتي بمعلوماتٍ جديدةٍ من بيوتهم وتسمع مايكون على أفواههم.

في الأيام الأولى مع (كلثوم)، كانت والدتُها ترافقُها في بعض أجزاءِ الطريق، وخاصة أن زوجَها قال لها:

أيتُها المرأة! لا تُدخلينا في جدل، الله أعلم ما هو الذَّنب الذي ارتكبه زوجُ (أوزين).

يا لها من جريمة ! لماذا تُزعجينا؟ لم يعد مسموحًا لكِ بذلك

.. هل فهمتِ !؟

ولهذا السبب، استغلّت كُلثوم بعد ذلك الأعمالَ المنزليةَ ومرضَ زوجِها كذريعةٍ ، وحتى مرةً واحدة عندما التقيتا بالصُّدفةِ في الطريق، ظلّتا كذلك، ولم يقطعا بضعَ خطواتٍ حتى همست كلثوم :

"أختاه! ترَىْ أن اللهَ قد عاقبني، وبسببِ هذا الألمِ الحادّ في ساقي لا أستطيعُ الذهاب، اذهبي بنفسِك حتى لا تتأخّري..

إذا ذهبتِ ببطءٍ معي لن تصلي إلى وجهتِك حتى العشاء!

وانفصلَت عنها والدتُك بقلبٍ خائب وكانت تتجهُ نحو وجهتِها لعدة أيام..

وافترقا، لكن والدةَ(بارات) لم تجد أثراً لزوجِها في أي مكان.

كان كلُّ بابٍ تقصده تشعرُ بخيبةِ أمل، وأخيرا، انجذبت إلى زيارةِ الأضرحة.

في أيام الأربعاء، تذهب لزيارة الاولياء من الصباح، كزيارةِ العُشاق والمتصوّفة ، ومن زيارة" بابا خودي" إلى "الأربعة عشر بريئًا" وهكذا...

ذهبت العجوز إلى زيارةِ أضرحة أخرى في المدينةِ بصحبةِ الثكالى والمحطَّمين... اصطفُّوا، ثم كانت تبكي وتئنُّ وتصرخُ وتُشعلُ شمعة،

كانا تأمل أن تجد أثراً لما فقدته، لكنها لم تجده ولم تسمع شيئاً عن زوجها.. في بعض الأحيان كانت تشعرُ بالملِ الشديدِ

وكانت تلتفتُ حولَها وهي تلعنُ نفسَها :

يا له من يومٍ سيءٍ حين أنجبتني أمي! أتمنى لو كنتُ قد خُلِقتُ حجراً بدلا مني.

ثم رفعت يدَيها إلى السماء: إلهي...!

وأفرغَت آلامَها بالدعاء.

*****

كان ذلك اليومُ هو الأربعاءُ مرةً أخرى..أمي كالعادة تستيقظُ في الصباحِ الباكر... لقد كانت قادرةً على الذهابِ في رحلةِ زيارة للأضرحةِ مرةً أخرى، وتكون مرةً أخرى بصحبةِ المُنكسرين والثكالى.

غادرتِ المنزلَ وهي تحملُ طفلَها الوحيدَ (بارات).. لا يزال بعضُ الضيّ موجود ولم يكن قد عبرَت الزقاق، عندما رأت كلثوم من مسافةٌ بعيدة.

كان الطريقُ سلِسا.. والدةُ (بارات) عندما رأت كلثوم زادت خطواتُها حتى وصلت إليها.. تنادي كلثوم، التي سمعت خطى خلفَها.. توقَّفت في مكانُها وأدارت وجهها إلى الوراء..

انصرفت ووقعت عيناها على أمي التي بادلتها بابتسامةٍ قصيرةٍ على شفاهِها الجافّة وأظهرت رشقات نارية لها.

قالت كلثوم:

" كيف حالك يا أمّي! كم تأخرتُ عليك..

لم أركِ منذُ فترة.. أين أنتِ!؟ هل علمتِ شيئاً بشأن طفلِك أم لا ؟"

وبعد سماعِ كلماتها، تنهدت والدة (بارات) وقالت:

"لا يا كلثوم..

والله أنا على وشكُ الجنون.

لقد انفجرتِ الأرضُ وأنا على الأرض!

ومسحَت بطرفِ عباءتِها الدموعَ التي كانت تقطُر من عينَيها، فواسَتها كلثوم وقالت :

"لا بأس يا أختي، اللهُ لطيف، لا تحزني كثيرًا. أنظري إلى لونِك! لقد تحوَّل لونُك إلى اللون الأصفر لدرجة أنه لا يوجد قطرةَ دم في عروقك.

لقد تحوَّل شعرُك إلى اللونِ الأبيض في هذا السنّ الصغير، ماذا لو حدث لك مكروه؟!

إذا تبادر إلى ذهنك أيَّةُ محاولة ، فمن سيعتني بهذا الطفلِ البريء ؟ هوّني عليكِ.. فبعد كلِّ ظلمةٍ هناك نور.

وكما لو كانت تذرفُ الدموعَ أيضًا، فإن طرفَ عباءتِها قريبٌ من عينَيها الجافّتين.

فركَت عينَيها عدةَ مراتٍ وتابعت حديثَها :

"إذا سمعتم عنّي شيئاً فاتركوني، ليفعل الله بي ما يشاء..

فلألجأ إلى الله.

فقالت كلثوم وهي تُربّتُ على ظهرها عدة مرات:

"ما في مصيرنا لا يمكن تغييره."

الذي يجلس بيد رقيقة وكتاب صغير فيه أساطير "الشيطان" وحكايات "الجنية" و"جبل قاف" يُغنّي كثيرا..

سمع خُطى والدتك، فرفع رأسَه ، واتجه نحوَ والدتك التي نظرت إليه في دهشة..

بعد قليلٍ من التأخير، ودون رفع حاجب، رفع عينيه عن والدتك.. اخذها إليه وبدأ بتلاوة "الورد" بل"الأوراد"..

ترك ذلك الشاب كتابَه، بعينين تتكلمان بالشهوة والشر ينظر إلى والدتك.. وأمك تنظر إليه بشكل مستمر ورهبةٌ في عروقها.

*****

من فجوة البوابة، بينما الذي يحمل طفلَه بين ذراعيَه ويجلس ويخفض رأسه... بعد بضعِ دقائق وضع يدَيه في وضع الصلاة ووضعهما على كفيه يقوم بمسح وجهَه ولحيتَه ببطءٍ شديدٍ ولُطف، أولاً على كتفه الأيمن، ثم أدار رأسه إلى كتفه اليسرى عدة مرات ثم قال:

"ممرضة! لم يكن ذلك جيدا بالنسبة لك؟ ماذا كنتِ تعملين؟"

(أم بارات)، التي كانت تحت تأثير العبادة و"الكلمة" تخجل من نظراتِه الشهوانية..كانت تتمزّق بداخلها، وكان لسانها جافًا مثل الخشب وملتصقًا بحنكها.

يقول: " لدي وظيفةٌ بالنسبة لك".

تلعن الشيطان وتقول:

"باركالله فيك!

أخبريني، ما هي المشكلةُ التي أمامك؟"

"مال صاحب، لقد جاءوا قبل بضعِ ليالٍ وأخذوا طفلي". أنا لا أفهم على الإطلاق... في كل مكان أذهب إليه للعثور عليه، يخبرني أحدُهم أن آتي إليك وأنك سوف تساعدني.

"لا، هذا خطأ. لا أستطيعُ فعلَ أيِّ شيء"

والدتُك التي خاب أملُها تتوسّل وتقول:

"مال صاحب! واللهِ تجد الحل.

أنا ليس لديّ اخد.. ليس لدي أي شخص هنا باستثناء طفلي.. آمِن بالله.. صدّقني.

أنه مجنونٌ تمامًا بالنساء...

في كل اللحظات التي تتحدث فيها والدتك معه، ينظر إليها ذلك الشاب نظرة شهوانية، ثم أبعد عينَيه عنها لِلحظات. لكنها صارا تحت رحمة قلمِه الملَوَّن ذاتيا وكان مكتوبًاعليه"Turpen"، وكان هديةً من شخص ما، فأخذه سروره به وأخرجه من جيب صدريته وواجه الشاب قائلاً :

"باكيم، خذ ورقة من الحافة".

وقال لها :

" سأعطي اسمَ طفلِك لشخص ما لمعرفة حالته، ولكن لا تقولي شيئًا لأحد واحتفظي بالحديث لنفسك." وأضاف:

"حقا، لا تنسى حلاوة ذلك"
تقسم له والدتك ألا تخبر أحداً وأن تحضر له حلوى العثور عليه، ودعت ان يباركه الله ويعود إلى بيته بقلب سعيد.
سيأتي اليوم الموعود وستذهب والدتك إلى المسجد ومعها آلاف الآمال.
هذه المرة، وبدون تردُّد، تتّجهُ مباشرةً إلى القاعة، وتحمل حذاءَها وتدخل المسجد.. تدخل، وترى أنه لا يزال منشغلاً بالصلاةِ والعبادةِ و"الورد" أو"الأوراد".. إنه يقرأ، وهذا الشابُ يجلسُ أيضًا في مستوى أدنى من (مال) ويقرأ نفسَ الشيء.. الكتابُ الأسطوري هو "الشيطان" و"الجنية" و"جبل قاف".
دخلت من البوابة مرة أخرى، وجلسَت تنتظر (مال) إنهاءَ قراءتِه المهمة.. بعد بضعِ دقائقَ من التحمُّل،راح يكرّرُ نفسَ العملِ في ذلك اليوم، فيضعُ يدَيه أولاً في وضع الصلاة، ثم يضع يديه على وجهه ولحيته إلى كفيه، وينسحب ببطءٍ شديد وبهدوء، ويدير رأسه إلى الكتف الأيسر، عدة مرات
ثم يقول لأمك:

"أيتها الممرضة، جئتي بسبب زوجك.. اذهبي إلى بيشاور بعد يومين.. لا تنسى لك.. بعد يومين، عندما تتحسن الأحوال.. ستقابلين (تشابين)، ثم يلتفت إليها ويقول:

"أعطني قطعةً من الورقِ يا (تويك)، حتى أتمكنَ من كتابةِ عنوانِ أخيكَ لهذه الممرضة."

يأخذ الورقة من الشاب ويكتب عليها اسم وعنوان مكتب ابنه الأكبر.

يكتب.....

*****

لقد مر هذان اليومان على والدتِك كأنهما عامين طويلَين، وكان الصباح لا يزال قائمًا، ولم تكن الشمس قد أشرقت خلف جبال المدينة، فخرجت من المنزل إلى عنوان (مال).

كان الطريقُ سلِساً. وفي الطريق تبكي تارةً من السعادة وتارةً ابتسامةٌ على شفتَيها.

وقد ذهبت بالفعلِ إلى ذلك العنوان مرة أو مرتين، ولكن قيل لها: أن زوجَها ليس هناك، واعطوها عنواناً آخر.

وصلت والدتُك أخيرًا إلى ذلك العنوان ومعها آلافُ الأفكار والآمالِ وخيباتِ الأمل.

تقفُ خلف بوابةٍ حديديةٍ كبيرة. وأعطت(بيريدار) اسم ابن (مال) وقالت:

"الأخ جون، هذا طلب من هذا الشخص يخصّني"

عندما رأى) بيريدار) اسم ابن مال، رفع حاجبَيه بنبرةٍ قاسية وقال :

"في هذا الصباحِ الباكر، وهو لا يزال مستيقظًا ودون أن يُنهي جملتَه، هزَّ رأسَه وكتب اسمَ والدتِك في الدفتر وقال لها:

"اذهبي، لم يأتِ أحدٌ إلى المكتبِ بعد."

ويشير إلى الجانب الآخر من الطريق ويضيف:

"اذهبي واجلسي هناك، وسأناديكِ مرةً أخرى."

أمُّك دون أن تقولَ شيئا، تخرج تنهيدةٌ من صدرها كانت محبوسةً، وبعينَين باكيتين تذهب إلى الجانبِ الآخر من الطريق تحت الشجرة.. تحدّق في الأرض أمامها، في البذور، وترى أزهارَ الأشجارِ الذابلة التي قد سقطت على الأرض، فتحملها الريحُ على الأرض من هنا إلى هناك، فيلتقطها(بانوك) بأصابعِه من الأرض.. يلمسها.. ينظر إلى عروقِها.. كلّها جافة.

قلبها يحترق بداخلها. قلبها يخرج إلى كل من هُم في وضعها يحترقون. تبكي عيناها وتُغلق حلقَها.

يضمُّ أحدُهم طفلَه بقوةٍ إلى صدرِه ويرفع رأسَه ويموت..
تراقب الأغصان وأوراق شجرة السنط المتربة شروق الشمس.
ولم تنظر إلى الشمس للحظات، لأن الشمس تؤذي عينيها.
ترفع عينيها عن الشمس وتنظر إلى ساعتها مرة أخرى. في رأيها بدا أن عقرب الساعة لا يتحرك. تفتح وتغلق عينيها عدة مرات..
مرة أخرى، تنظر بعناية إلى ساعتها ثم تقرّبها على عجلٍ من أذنيها.
تسمعُ صوتَ ساعتِها.. تنظر إلى ساعتِها مرةً أخرى، وترى الباب.. تتنهّد وتنظر حولها وترى لحظة بعد لحظة أنّ
عددَ الأشخاص هناك يزيد، وبعد ساعة تُدركُ العبءَ الذين هم عليه، وكان جميعُ الذين أتَوا بسببه متعبين وشاحبين.
وكان الجميع يبحث عن شيء ضائع مثلِها.. كان لديهم جميعا ألمٌ مشترك.
كان بإمكانك أن ترى كيف كان الجنودُ يضربون جوانبَهم بأطراف بنادقهم.. فبعدوا.. بعدوا بعيداً عن الباب الحديدي الكبير. احترق قلبُها لهم مرةً أخرى. ومضى نصف اليوم انتظاراً.

ينادى كلّ جندي باسمَه. فإذا سمع اسمَه كان كالسهم من القَوس إذا تُرُكَت وحدها.. لقد شق لنفسِه طريقاً بين الحشد وأمام ذلك الجندي يذهب ويسأل الجندي بحاجب مُجعَّد بغضب:

أنتِ؟!

وتجيب والدتك ببراءة:

نعم أنا.

تعالَي خلفي.

وبعد ذلك يتبعه الجندي الذي أمامك وأمك. هم أولا في الداخل

يذهبون إلى كشك خشبي، ومن خلفك والدتك، وبعد ذلك، كلاهما يؤدي إلى الرصيف الطويل والطويل إلى قصر كبير وقديم.

توجَد مباني قديمةٍ مُكوَّنةً من طابقَين على جوانبَ القصرِ الأربعة. نوافذِ الغُرَف بها قضبانٌ حديديةٌ كبيرةٌ مسدودة. والدتُك مرعوبةٌ لرؤيةِ هذا المنظر...

فجأة لاحظت أن يدَيها وقدمَيها ترتجفان...

يبدو أن قضبان نوافذ الغُرَف ملطخة بالدماء..تلك النوافذ

الحديدية الكبيرة. ويبدو أن هناك ضجيجاً عالياً من داخل الغرف.

صوتُ (شيون) وصراخُه جعل قلبها ينبض ويملأ الخوفُ كيانَها.

الأمُ ، وهي تحمل طفلَها بين ذراعَيها، يرافقها نفس الخوفِ والرُّعب.. ذهبت مع ذلك الجندي إلى الجزء الأخير من القَصر، ومن هناك دخل الممر الضيق المظلم الرَّطب.

وهناك مجموعةٌ صغيرةٌ في الرّدهة المغطاةِ بالكثيرِ من الغبار، وهناك في منتصف سقف الصالة القليلُ من الضّوء والرائحةِ الرطبة.. أنف والدتك يزعجها ويبدو لها أن رائحةَ الدمِ قد ملأت الدهليز.. الرائحة .. الرطوبة ورائحةُ الدمِ تزعجها. وفي نهاية الممر يوجد صندوقٌ أسود.

وبنفس الغضب والعتاب يشير الجندي إلى والدتك لتجلسَ على المقعد،ويطرق باب إحدى الغرف بإصبعِه وببطءٍ شديدٌ، ثم يدخل...

لم تمضِ ثوانٍ قليلةٍ حتى خرج الجنديُّ من الغرفةِ مُجدّدًا بإشارة، يقول لأمّك أن تدخلَ الغرفة. والدتُك كانت خائفةً جداً. قلبُها كان ينبضُ بقوةٍ في صدرها.. كانت تعتقد أن قلبَها قد

انفصلَ عن صدرِها، وكأنه سوف يقع عند قدمَيها. كانت تعتقد أنها لا تستطيعُ المشيَ بعد ذلك، وليس لديها وسيلةٌ للذهاب.

وبعد أن طرق البابَ دخل الغرفة، وعلى الطَّاولة داخل الغرفة، كان هناك رجلٌ سمينٌ ذو أربعةِ أكتاف، يرتدي زي الضباط المقاتلين، كان يجلس كرجُلٍ عظيم . كان لديه وجهٌ غريبٌ ورهيب، وكان رأسُه كبيراً. كان من سمانتِه كأنّ رأسَه في منتصف كتفيه.. كأنه بلا رقبةٍ على الإطلاق، تمامًا مثل الجزارِ الذي في سوقِ (شارسو) الذي بالقرب من منزلهم.. بدا وكأنه أخٌ لذلك الجزار .

تعرَّفت للتوّ على يدِه اليسرى واليمنى، جعله والده متدربًا في محل الجزارة في الحيّ وكانت رائحةُ أنفِه تفوحُ برائحةِ الدم وعيناه كذلك ، وكانت المسالخ مألوفة.

عندما تدخلُ والدتُك الغرفة، تحيّيه وترفعُ رأسَها، ليردّ ويشير إليها قائلاً :

اجلسي!

كانت عينا الرجل مثل وعاءَين من الدم، وكانت رائحةُ الفودكا تنبعثُ من فمِه، و تعابيرُ وجهِه المتتالية تشير إلى ذلك.. يقول كأنه نائمٌ او مختنقٌ متسائلاً :

كيف تعرفين والدي؟

وبعد صمتٍ طويل، أجابته والدتُك التي كانت تتحدث برعشةٍ من الخوف

قالت :

هو المالك.. هو المالك المالي لمسجدِنا .

بينما كانت والدتُك تتحدث إليه ، قام ذلك الرجلُ بسحب فمه مرة أخرى، يفتحه بقدر ما يستطيع وهو يُدخّن، وسوادُ اسنانِه المدخِّنة يجعل وجهَه أكثرَ عُنفاً ورعباً. ومرة أخرى

يسأل والدتك:

كم عدد الأطفال لديكِ؟

سيدي، لدي طفلٌ واحد.

كانت والدتُك تجيبُ بخوف،وهي تضغط عليك أكثر بين ذراعيها.

لماذا تزوجت مثل هذا الشخص السيئ؟

عندما سمعت والدتك هذا ضحكت وقالت:

(صاحب) لم يؤذيني. إنه زوجٌ جيّدٌ جدًا بالنسبة لي.

هذه المرة كان الرجلُ غاضباً، وقال :

بجَدّ؟!لقد وجدت زوجَك أمس...

لم تُرِحهُ كلماتُ أمّك، فيقاطعها ويسال بغضبٍ وسخرية:
زوجُك لم يكن شخصاً جيداً، وقد تم العثور بحوزته كُتب محظورة، ويضيف وهو يعطي ورقة لأمك:
لقد تمت معاقبتُه بالفعل على أفعالِه وتمَّ إعدامُه.
عند سماع هذا الخبر، صرخت والدتُك بصوتٍ عالٍ، كما لو أن قنبلةً قد انفجرت.. رجل في الغرفة يسقط طفلُه على الأرض ويضرب صدرَه بقبضته، يشُدّ شعره ويشتكي ويصرخ.
ينظر الرجلُ بهدوء إلى هذا المشهد وما زال ينادي الجندي بهدوء ويقول:
أعطه هذه الورقة وأخرجهُ من هنا.
يأخذ الجندي(بخشام) والدتَك ويُخرجها من هناك.
كانت والدتُك تبكي وتنتحبُ وتصرخ، كما لو كانت تريد ان يبلغ صوتها السماء أو النجوم أو الجبال أو الطيور.
الرجلُ هو ايضا، في انينٍ وصراخ، وظلّ يسبّ كلاً منهما، ويضرب نفسه على الأرض، ويضربُ على رأسه...
كان يفرك نفسه على الأرض، وينتف شعره ويتجمد. لكن الجندي بغض النظر عن الإهانات بالقول واللعنة يفي بوعده ويتركه على حاله.

* * *

سعال(بيهام بارات) يمزّق ملابسَ والدته.. كان يتكئ على يديه فوق الكرسي، ويرفع يده على جبهتك، فتكتشف أنه مصابٌ بالحمى. آخذت الفازلين وقامت بدهن صدره

وفركه.. لديك حُمَّى شديدةٌ وجسمُك ساخن. وليس لديها خيارٌ آخر سوى ان تغطيَه باللحافِ وتلفّه به.

لا يزال قلبُ والدتِك مضطربًا، وهي خائفةٌ من وجهِها المكتئب.. مضاعفاته واضحة.. خوفٌ أعظم من رعب الحرب وما هوأعظم من رُعب الموت.

وما سمعته هو أنَّ هؤلاء الرجال كانوا يحملون بنادق في أيديهم وهتفوا بفتح "برلاب"..تلك المدينة الجديدة التي احتلوها، وطرقوا أبوابَ البيوت، وأخذوا الأغنياءَ والفقراء إلى" الترج".

ثم قاموا باغتصاب الشابات والفتيات. تذكرك والدتك بأنها كانت ترفع يدَيها دائمًا بالدعاءِ وانتصارِ هؤلاء الرجال الذين فرّوا من بيوتهم.

ابوك طلب البندقيةَ في يده، وكان يدعو لهم دائمًا بفتح المدينة والنصر عند سفوح مدينة" بكوبند"، حتى لهذا السبب، نذر

وكان يصلي النافلة دائمًا، لكن الآن بدا يائسًا، حيث تحطمت كلُّ أحلامِه من أفعالِهم.

كانت آذانُ أمك وعيونُها مركَّزة على البوابة.. على الرغم من أنَّ البوابة كانت مغلقة بالسلاسل، لكنها كانت تعلم أن السلسلةَ لم تكن مُحكمَةً للغاية، وأنّه مع القليل من الضغط ممكن..

فتحت البوابة. كانت ملفوفةً بالهم والقلق مثل شبكة العنكبوت.

وفجأة سمعت صوتاً عالياً من القاعة، وسماع صوتٍ من الشُّرفة ، فبدا عليها القلق، وبدأ قلبها ينبض، بينما هو في الزاوية يمسك أصابعه المرتجفة بإحكام، ووقف نصفًا وقال بأنفاسٍ هادئة :

"الله، لاإله إلا الله"

وكانت شفتيها ترتجف، وكذا يداها وقدماها..

لقد كان الأمر غير مسبوق. أرادت أن تصرخ وتصرخ، كل الجيران وأفراد الأسرة يعرفون كم كانت تعاني، وانها كانت تطلب المساعدة من الله.

أرادت أن تجدَ خيارات أخرى. زادت الفرصةُ قليلا..

أطلقت مخالبَها وانحنت على الجدارِ البارد والرطب.

ثبّتت عينيها على زاويةِ البوابة، وهي ترتجف من رأسها إلى أخمص قدميها.. كان قلبها ينبض في صدرها. لديها الحل، آذ فجأةً ارتفع صوتُ صراخ الجار(بيشك) من القاعة... سماع صوت ميو مواء بيشك.

أطلقت تنهيدةً عميقةً وأغلقَت عينَيها للحظة... العرَقُ البارِدُ يتساقطُ على جبهتِها. على الرغم من أنها كانت ترتجف، فقد جاء إليها الهدوءُ النسبي، وبعدها قالت في نفسِها:

يا الله..

ثم ظهرت على يدَيها الدموعُ التي تتساقطُ من عينَيها، واختفت شجاعتُها وقوتُها تمامًا. وهي لا تزال متكئةً على الحائط.. انزلقَت ببطءٍ حتى النهاية وجلسَت مترهِّلة، وكان طفلُها يسعَل.

وضعت يدَها التي لا تزالُ ترتجفُ على رأسِ الطفلِ وبدأت في مداعبتِه ببطء...أغمض عينيه واسترخى.

*****

لم تمر دقائقٌ قليلة، حتى سُمِع صوتُ خطواتٍ قادمةٍ من الدرَج. سوف ينهضون ويهزّونه مرةً أخرى. مذعوراً، رفع رأسَه من أعلى الكرسي واستمع إلى البوابة. اكتشفَ عددَ الأشخاصِ

الذين يصعدون الدَّرَج. وعند سماعِه صوتَ خُطى، أُصيبَ بالذّعرِ مرةً أخرى. وبعد غمضةُ عين، كانت الغرفةُ مكتظة..
نادت والدتِك من مقعدِها :
من أنت؟
قال بصوتٌ عالٍ من الجانبِ الآخر من البوابة :
افتحي..
من أنت، ماذا تفعل؟
أخبرتْك والدتُك بذلك وهي تبكي، ولكن من الجانبِ الآخر من البوابةِ جاء صوتٌ آخر:
قلت افتحيه.. هل تفهمين الكلام؟
وبدون أن تقولَ كلمةً أخرى، عانقَت والدةُ (بارات) طفلَها ونظرَت بعيدًا..
اجعل نفسَك قريبًا من الغرفة. فتخ (كالكين) من ناحية قصر الجيران. وكان الأمر قريبًا من(كالكين) عندما ارتطمت ركلةٌ قويةٌ بالمرمى وانكسر المرمى.
وبدون تردد، قام الرجال الثلاثة، حاملين بنادقهم في أيديهم، دخلا الغرفة معًا.. تقدم أحدهم قليلا وقال :
أين أنت؟
رغم أن الغرفةَ كانت نصفَ مُظلمة، إلا أن والدتَك ساعدتك بالضَّوءِ الذي تألَّق على الشخصِ الذي جاء قليلاً إلى الأمام.

عتمةُ الشمعةِ التي تأتي من أعلى الكرسي تعرّفَت على(ابن مال)، الذي كان يجلسُ دائمًا بجانب (مال) وكتاب الحكايات الخُرافية، وهو يقرأ حكايات و"الجنية" وأساطير "جبل قاف".
إنها الأم القريبةُ منك..
رأى (كالكين)، ونادى :
تعال بهذه الطريقة، تعال!
ستفتح لك الأمُ البابَ حتى تشاء وتتركُ نفسَها للنهاية.. ابن مال!
.. قفزت (تيري) التى أخذت والدتُك عهدًا عليه ان يتعهّدك.، وبدأت والدةُ (بارات) بالصراخِ وبدأ طفلُها المريضُ بالبكاء، فأخذ الصبي متعلقاتِ الطفل المريض من حِضنِ أمّه ووضعه في زاويةِ الغرفة.. أحضرتك أمُّك إلى منتصفِ الغرفة ،حيث كنت تحترقُ بحمّى شديدة وانت تبكي، وشُوهدَت والدتُك تتخَّبطُ في وسطِ الغرفة، فحاول ذلك الرجلُ إزالةَ التوتُّر.. رأى الطفلُ أنه مهما حاولت أمه، ومهما حاول إنقاذها، لكنه لم ينجح.. أغمض الطفلُ عينَيه عن كلّ شيء.. والدتُه تمر، ولا تُشاهَد بعد الآن.

1997 ألمانيا

(٢)

" وجهاً لوجه مع قاتلك"

"ماء!" كنتَ عطشانًا وفمُك جافًا. لسانُك جافٌّ أيضًا..
كان لسانُك ملتصقاً بمعدتِك من العطش. تنادي أخاك ببطء وهدوء.. : "ماء!"، لم يسمعك أخوك، أو سمعه، لكنه لم يأت .. وصلَ صوتُك لوالدتِك مرةً أخرى وقلتَ لها ببطءٍ وهدوء: "ماء... ماء".
والدتُك لم تسمع صوتَك أيضاً.. كنتَ مستلقياً على الأرض. كانت الأرضُ باردة. برودةُ الأرض شقّت طريقَها في جسدك. كان الجوُّ بارداً. جسمُك يرتجفُ من البرد. أسنانُك كانت تطحن. أردت أن ترفع رأسَك، لكنك لم تستطع.
لقد كنتَ في حيرةٍ من أمرِك.. كان وجهُك منتفخًا ويؤلمُك..
رأسُك ووجهُك ينفجران من الألم. لقد فتحتَ عينَيك على مشكلةٍ صغيرة.. لا يمكنُك رؤيةَ أيّ شيء.. كان الظلامُ يبدو لك وكأنك كنتَ في الظلام لسنواتٍ على قيدِ الحياة. أغلقتَ عينَيك المنتفختَين وفتحتهما مرةً أخرى. ما زلتَ لم ترَ أيَّ شيء.

في الواقع، أنت تعرف أين أنت! كان منتصفَ الليل عندما أخرجوك من غرفتك.. تم إصلاحُ الطابقِ السُّفلي هناك، وفي غرفةٍ صغيرة، بدأ السيد "بي" بالتحقيق معك بالفعل.

عندما أخذوك إلى هناك، قال لك السيد "بي": "تتحدث مثل العندليب في الليل".

سوف تأتي،وإذا لم تأتِ مثل العندليب وتعترف بكل شيء، سأعود! أنت تفهم، سأعود!

فيتو: أنت لم تأت مثل العندليب، ولم يكن هناك ما تعترف به. هذا كل شيء.

كانت ذاكرة السيد "بي تارا" مشرقةً جدًا. يتم سحق فمك وأنفك وخصرك و...

لقد جعل أكتافَك ناعمة..قبل ليلتَين، كان نفس السيد"بي تيرا" مع زميلِك في السكن ، الذي كان في نفس عمرك، طُلب التحقيق معه.

وعندما أخذوا زملاء السكن، اختفى اللون من وجهه.. ارتجفت زاوية شفاه شريكك في الغرفة. وكانت يداه تهتز أيضا.

ارتعدت الأوهام. توسل زملاء بيهام في السكن إلى الحراس قائلاً إنه مريض، لكن الشرطيين، بغض النظر عن رغبته، أخذوه

معهم. أنت دون أن تترك مكانك كنت تشاهد هذا المشهد. أو في تلك اللحظة كان في قلبك، فهل عليك أن تذهب لتفعل شيئاً من أجله؟ على سبيل المثال، يمكنك النهوض وإيقافه.

هل كنت تبحث عن حلّ؟

لا! كنت خائفا جدا! كنت خائفًا جدًا لدرجة أن أنفاسَك كانت في صدرِك، وتكاد أسنانك ان تتكسّر وتتساقط.

لم يعد زميل الغرفة هذا أبدًا!

تتذكر أنك بعد ذلك في زاوية في الغرفة، يمكنك أن تعانق ركبتيك وتجلس بهدوء للحظة.. كنتَ هادئاً، لكن الدموع كانت تتساقط من زوايا عينيك.

* * *

السيد "ع" لم يكمل كلامه. كان لا يزال يتحدث عن عمله السابق و كنتَ لا تزال في تفكيرٍ عميق، التفكير في كل الأشخاص الذين عذَّبهم.

كلهم كانوا أنت! وكنت غارقاً في أفكارك..

القاضي وعلى شفتيه ابتسامة هادئة وكان جالساً فقال لك:

"أخبروا هذا الرجل كيف كان عندما كان يعذب شخصًا

هل كان سعيداً أم حزيناً!" وأنت تتذكر ذلك السؤال.

السيد "بي" وقف وقال:

" كان واجباً علينا.. كانوا مجرمين في أعيننا، وكان من واجبي ذلك.

فسأل القاضي مرةً أخرى :

"بالضرب والتعذيب؟!"

فأجاب السيد "ع":

«نعم، حتى يعترفوا».

هل تتذكر بعد ذلك عندما سأله القاضي :

"كم ماتوا تحت التعذيب؟"

وأجاب بهدوء:

"لا أتذكر بشكل صحيح. خمسة وعشرون شخصًا، وربما حتى ثلاثين شخصًا.

عند سماع هذا الخبر، ارتفع معدل ضربات قلبك وزاد الغضب تحت جلدك، وركض إلى أسفل.

في تلك اللحظة كنتَ قد قرَّرتَ النهوض.

لُفّ يدَيك حول حلقِه واضغط على حلقِه بشدة حتى يختنق

عندما قال لك القاضي :

"أخبر هذا السيد أنني سأكتب إليك لاحقًا سبب "رفض" أو "قبول" سجنك.

*****

لقد مرّت بضعةُ أيام منذ أن ذهبتَ إلى كابول بعد سنوات عديدة. عندما يتم سؤالك:

لقد سرقت.

"هل تعمل في كابول؟"

بمجرد وصولك إلى كابول، تجوّلت من زقاقٌ إلى زقاقٍ بحثًا عن ذكرياتك.

لم تجد ذكرياتك في تلك الأزِقَّة الخرِبة، ودُمّرتَ مثل تلك الأزِقّة التي في كابول.. ذلك الزقاق الآخر هو المقبرة الوحيدة لذكرياتك!

ويلٌ لك ! لقد دُمّرَت كلها ..

ذهبتَ إلى الأزقة المُدمَّرة للعثور على المكتب الذي يجب عليك العمل فيه...

بعد الكثير من البحث، وصلتَ أخيرًا، أمام التجديد الكبير الذي

عليه المكتب حديثًا،على الفور وقعت عيناك على اللوحةِ المُثبتة :

" لجنةُ الدفاعِ عن حقوقِ الإنسانِ تُحقِّقُ في انتهاكاتِ حقوقِ الإنسان في السجونِ بكلّ قلبها "

هناك إصلاحاتٌ بداخلِه، وذهبتُ خلف بوابةِ الغرفة خلفَ الباب ، فوجدتُ مكتوباً :

"مساعد ومستشار كبير"

فتحتَ البابَ وعندما دخلتَ الغرفةَ تفاجأتَ برؤيةِ المساعد وكبيرِ المستشارين

تسمَّرتَ في مكانك.

فلما وقعَت عينُك على عينَيه أصبحتَ ساخنا كالشاي.

(٣)

"كنتِ تنتظري"

كنتِ مستلقيةً على الأريكة، نهضتي وجلستي.. رأسُك مُشوَّش ومُرتبك.

كنتِ لا تزالين في الأسفل تغرقين في البرد. سواء كان ذلك من الخجلِ أم لا، فإن خدودَك حمراء حتى رقبتك، كأنها

دموعٌ حمراء ساكنة، تتساقط قطرةً قطرةً من زاوية عينَيك،

و أزرارُ السترةِ فتحتِها يا (بانوك)، والأصابعُ الباردةُ والمرتجفةُ أغلقتِها وسحبتي شعرَك على وجهِك

وحركتي عباءَتكِ على رأسك.. نظرتي وأدركتي أن العصا التي صنعتِها كانت عبارةً عن شماعةِ لحم بدلاً من حَلَق..

لقد سقطت أقراطُك التي كانت آخرَ هديةٍ تذكارية لحفل زفافك قبل شهر، وكنتي قد بعتِه واستبدلتِه بعصا حتى لا يسد الثقب الذي في الأذُن.

لقد قمتي بتدفئةِ المنزل لعدةِ ليالٍ وأنقذتي طفلَك من البرد.

***

لا تزال رائحةُ عرق جسدِه القوية والكريهة تفركُ جسمَكِ وعظامك ومزاجك بالكامل.

وما زال يمتزجُ بجسدِك وكلّ جزءٍ من جسدك الذي لمسه وقبَّله...

افتقدتِه ونسَيْتِه، بقلبٍ مُثقلٍ وضيّق في الحَلْق، هزّ كيانَك كله، سوف تبقى آثارُه على وجهِك وحلقِك وثديَيْك وأيّ مكان لمَسه من جسدِك.. لقد قبلتِه، ومازلتِ تكرهينه. ما زلت تكرهين جسمَك كله بسببه.. لقد كرهتي الحياةَ وكرهتي كلَّ ما هو إنسانيّ من أي شخص مألوف.

لقد كرهتي الأجانب.. كرهتي الفقر.. كان لديكِ الكثير من الكراهية.

***

ورائحةُ النبيذِ المنزلي النفّاذة التي خرجت من فمِه لا تزال تتخلّل كيانك.. كنتِ تحترقين من رائحةِ البيت، من الخمر ورائحةِ سيجارتِه القويّة ورائحةِ جسدِه الكريهة، قلبك عانَى

ولقد انتهى الأمر.. كنتِ منزعجةً وشعرتي بالغثيان، والتأوه والرغبةِ في الصراخ. أردتي أن تتوقَّفي عن أنينِك وصراخك.

سوف تصلين إلى الجانب الآخر من الجبل، وبكاءك ستصلين إلى آذان السماء وأذُنَي زوجك في الجانب الآخر من الجبل.

زوجُك الذي لم يسمع كلامَك ورحل دفاعاً عن شرفِ الوطن.
أنتِ.. أردتي أن تمنعيه لكنّه قال لك :
"شرفُ البلد مهمٌّ بالنسبة لي! ينبغي للمرء أن يصبح جندياً للدفاعِ عن شرفِ الوطن.. لقد توسَّلتي إليه كثيرًا ألّا يذهب ويصبح جنديًا ليحفظَ شرف الوطن، وجلستي وتوسلتي إليه..
لكن تم إرسالُه ليكونَ جندياً من اجلِ الدفاعِ عن الوطنِ الأم، لبناءِ درعٍ واقٍ.
على الجانبِ الآخر من الجبلِ إلى الأمام حيث كانت(مها) لم تكن تعرفه.. لا، كيف كان شعورك؟
كان لديكِ رسالة، لا أسماءَ ولا أخبار.
***
لقد سقطتي.. سوف تذهبين إلى كلّ مكانٍ وتسألين الجميعَ عن حالتِهم.
كنتِ تبحثين باستمرار، ولم تَملّي من البحثِ والانتظارمع نفسك.

لقد وعدتي أنكِ سوف تبحثين عنه حتى النهاية وتنتظريه حتى الموت

***

تم نقلُ طفلِك المريض إلى الأريكةِ التي أمامك.. قبلها بلحظاتٍ قليلة، كانت صورةُ عيونُ الأطفالِ المحمومةُ والبريئةُ قد تم تأطيرها من خلال جهودك.

حاولتي الخروجَ من تحت جسدِه المتعرّق، لكنك تمكنتِ من التغاضي عن نصفِ الذَّنْب الذي ارتُكب في حقِّك، من أجل براءةِ طفلكُ المريضِ ذي العيونِ المحمومةِ التي كانت تراقبك.

***

لقد أتيت بقدمَيك إلى هناك. لقد أتيت للعثورِ على زوجك، وقد أرسلَ إلى الجبهةِ ليحمي صدرَ الوطن دفاعاً عن شرفه !

وأنتِ مدَمَّرةٌ ومكسورةٌ ومتناثرةٌ، وطفلٌ بين ذراعَيكِ وبقعةٌ على تنُّورتك هناك..

لقد رحلتي على خُطى (ليزران) بحثاً عنه.

فولدا، ألمانيا

2020-3-15

(٤)

"جائع"

كان هناك كلبٌ أصفر، يضعُ رأسَه على رجلَيه الأماميتَين يجلسُ تحت الكُشكِ الوحيدِ في محلِّ بقالةِ البازار وينظر إلى الجانبَين....كان بجانب الرجُلِ العجوز فتاةٌ نائمةٌ ورأسُها على ركبتَيه ، وعندما سمع صوتَ الانفجار، نهض الكلب ، ولوّح بذيله، و نهض، وخرج من تحت كشكِ المتجر، واقترب من الرجلِ العجوزِ وجلس مع الفتاةِ الصغيرة.

مرة أخرى، كما فعل من قبل، وضع رأسَه على رجلَيه الأماميتَين وبدأ ينظر إليهما مرارًا وتكرارًا.

لكن بسببِ صوتِ الانفجار اهتزت الفتاةُ وقفزت من النوم.... كان لونها مثل الطباشير.

أدارت الفتاةُ الصغيرةُ رأسَها وغرزت رأسَها بداخلِ حِجْر الرجل العجوز.

الرجلُ العجوز الذي كان يجلس على الأرضِ ويتكئ على الحائط، أمسك بكتف الطفلة المرتعشة بيده النحيلة والنحيفة وضمها إلى صدره.

ارتعدت أكتافُ الفتاةِ قليلاً.

كانت يدا الرجلِ العجوز ترتعشُ أيضًا.

لقد صنعت البُرودة ارتعاشةً تحت جلد الفتاة، وفي قلب الرجلِ العجوز وداخله.

تحرَّكت الفتاةُ بين ذراعَي الرجل العجوز، وعيناها مغمضتين، وقالت ببطءٍ وبهدوء : "أنا جائعة"

الرجل العجوز لم يسمع ماقالته البنت وراح بعَينيه على الكلب، ورأى أنَّ الكلبَ كان ينظر إليهم أكثر فأكثر، فقالت الفتاةُ مرةً أخرى بصوتٍ أعلى قليلاً: "أنا جائعة"

هذه المرة وبسبب كلامِ الفتاة ذاب قلبُ الرجل العجوز وتألّم قلبُه.

كان يشعرُ بالخجلِ لأنه لم يسمع ماقالته من قبل وعاد إلى نفسه.

فأجابها بلسانٍ متلعثم:

- أفهمي يابنتي العزيزة!

الله كريم، سيأتينا بالحل!

انتظري بضع دقائق.

سألت الفتاةُ الصغيرةُ، بينما كان كتفاها لا يزالان يرتجفان وتنكمش بهدوء تحت جلدها.

ما هذا....؟

هل الله لطيفٌ حقا؟

تجوَّلت عيونُ العجوز وبحث في عقله الجريح ليأتي بجوابٍ لحفيدته ، لكنه لم يجد له الجوابَ اللازم، فاكتفى بالقول:

نعم.. الله لطيف.

هو دائما لطيف.

قالت:

هل اللهُ لطيفٌ معنا أيضاً؟

نعم

لجميعِ البشر.

يا ألله يا من لطفَ بنا.. لماذا لم يفعلِ اللهُ شيئا مع أولئك الذين هدموا منزلَنا؟

هذه المرة كان الرجلُ العجوزُ صامتاً.

سألت الفتاة :

هل الطاووسُ الصغيرُ جائعٌ أيضاًً؟

- نعم، لقد أعطاه زميلُه بذرة.

لا أعرف

هل أعطيتِه الخبز؟

نعم..

قالت لي أمي أن أعطيَه السكرَ حتى لا يموتَ جوعاً!

هل أعطيته السكر؟

نعم

أين رميتُ له السكر؟

في منزله.

أين بنيت له منزلا؟

في كتاب ابراج والدتي.

هل كان لدى والدتِك كتاب ابراج؟

نعم!

هل رأت والدتك ذلك؟

نشرت الفتاةُ جلبابَها نصفَ المفتوح تحت عباءتها بيديها النحيلتين والمرتجفتين وتابعت:

- نعم، كانت والدتي ترى الحظ كل ليلة قبل الذهاب إلى السرير.

_ما ذا في الأبراج؟

هل فيها علامة على أنه سيتم العثور على والدي؟
أطلق الرجلُ العجوزُ تنهيدةً مريرةً محترقةً على ذكرى ابنه.

*****

وبالفعل كانت والدتها ترى الحظَّ كل ليلة.
قبل بضع ليال فقط، كانت لا تزال تقرأ الطالع ، عندما تحطم زجاجُ ستارةِ الغرفة إلى قِطَع..
كان خائفاً من كلِّ صوت، وكانت الفتاةُ خائفةً أيضاً.
خبأت الفتاة رأسها تحت اللحافِ من الخوف..
والدتُها كانت خائفة أيضًا..
وقال انه لا يعرف ماذا يفعل؟
وكان مترددا لأنه كان خائفا من أن يرتفع صوت كل واحد من جديد.
كان خائفًا ويرتجف واقترب من الوشاح ليرى من يكون؟
لقد رأى أنه في ذلك الوقت من الليل، كانت هناك حمامةٌ تطرق النافذة، وكانت الأم أيضًا خائفة من الحمامة.

وكان من المدهش والغريب بالنسبة له أنه في ذلك الوقت من الليل رأى أنه كان الحمامةَ خلف الوشاح ...كان الخوف في كل مكان حوله.

وكان قد قرأ في كتب الأساطير أن الملائكةَ تُوجد أحياناً على هيئة حمام.

في تلك الليلة، كان خائفًا جدًا، وسيطر الخوفُ على جسدها كله، ولم تفتح وشاحها من الخوف.

لم يكن يريد الوقوف أكثر على الإطلاق.

كان ركنُ الغرفةِ مُعتماً، ورأى أخيرًا أن الجار (بيشك) قد جاء وأخذ الحمامة وأحزن قلبه.

وبعد عدةِ ليالٍ حلمت الأم أن الحمامةَ هي والدُ ابنتها.

وقد روت الأم هذه القصة للآخرين وذرفت دموعاً كثيرة، لكنها في الحقيقة لم تسمع شيئاً من والد ابنتها في وضح النهار.

لا شئ!

*****

وسألت الفتاةُ الرجلَ العجوزَ وهي مغمضةُ العينَين:

هل دمّروا منزلي المليء بالطاووس؟

- ربنا يهلكهم.

ولم يكن الرجل العجوز قد أنهى حديثَه عندما سألتِ الفتاةُ مرةً أخرى: متى ستذهب لرؤية والدتي في المستشفى؟

لم يكن الرجلُ العجوزُ قد أجاب بعد، عندما جاء رجلٌ وأعطى لفافةً صغيرةً تحتوي على طعامٍ للصدقةِ في يد الرجل العجوز وغادر على عجَل.

عند رؤية ذلك، شعَّ ضوءٌ في عيونِ الرجل العجوز،وظهرت ابتسامةٌ على شفتَيه..

وضع لفافةَ الطعامِ على الأرضِ بجانبِه وطلب من الفتاة أن تاكل..

الكلبُ الأصفر الذي كان دائماً حاضراً ذلك المشهد، نهض من مكانِه بهدوء واقترب من الرجل العجوز والفتاة.

وضع أنفه بالقرب من لفافةِ الطعام وشمّها...

رائحةُ اللحم داخل الطعام تزعج الحالة المزاجية للكلب (بشتاب).

لقد أثار ذلك شهيتَه، نظر (بشتاب) مرَّتين إلى الرجلِ العجوز والطفلةِ الصغيرة، ثم نظر إلى لفافةِ الطعام. وأخيراً، أخذ اللفافةَ بفمِه وهرب بعيداً.

2020-3-15

(٥)

"بين حجرين..."

قومي يا أمي...
الفتاةُ الصغيرةُ تحملُ ساقَك المبتورةَ بإحكامٍ في صدرِها
فيلتفت حوله ويصرخ:

أمي! استيقظي!
انهضي يا أمي!
كنتَ ترقُد مخدرًا وغير مستقر، اللوح على ظهرك، والشفتين
.. أنت الذي تُرِكْتَ في دمِك
قصفٌ جوي منذ لحظاتٍ قليلة ، ويدُ ابنتك في يدِك ، كنتَ متوترًا بشأن انفجارٍ ضرب الأرض فسقطتَ بشدّة.. فقدتَ يدَك اليسرى واليمنى.. كم واجهتَ من سقوط ، لكن هذه المرة ، اصطدمتَ بالأرض بقوة. صعبٌ جداً جدًا.. صعبٌ لدرجةِ أنك لم تعد قادرًا على النهوض في هذا الخريف ،
كما تم قطع الساق..لا يهم كيف تم قطع ساقك؟ المهم أنك

سقطتَ على الأرض وأنت الآن تسقط على الأرض . لقد تُوفيتَ منذ سنوات... صرتَ ضمن الموتى الراحلين منذ سنوات.. لقد كنت من قبل ميتاً يمشي.

كم مشيتَ وعملتَ واجتهدتَ من أجل ابنتك الوحيدة.. بسببها كنت تلهث من اجلِ بقائها.. أنت من رجال هذا الزمن..أنت رجلٌ حقيقي. ميّتٌ مثل كل الموتى في العالم، لكنك رجل، بنتكم تضغط على ساقِك المقطوعة وتضمّها على صدرها وتصرخ بصوتٍ عالٍ لتسمعها.

تصرخ:

أمي، انهضي.. جون، انهض!

ليس هناك من يسمع صوتَ ابنتك.. أنت فقط من يستطيع سماع هذا الصوت هناك.. كل الآذان صماء..

كل آذان الناس الأحياء صمّاء...

إنم تستمع إلى صوت ابنتِك..

تسمع صوت ابنتك، فيخفق قلبُك ويتمزق كبدك.

*****

لقد وقعتَ على الأرض، وسقوطُك على الأرض جعلكَ تشعر بالحُزن. اشتقتُ لك لفترة طويلة، كما كنتُ اشتاق لك من قبل.

سنواتُ الحياةِ تمتصنا، مثل النحلة التي تمتص الرحيق.

الآن.. تشتاقُ للسقوطِ على الأرض وتريدُ مغادرةَ مكانك...

استيقظ...

تريدُ النهوضَ وتحمل رأسَ ابنتِك بين ذراعَيك كما هو الحال دائمًا.

مهما حدث انهضوا.. يمكنُكم النهوض أيها الرجال.

ترى أن ابنتَك تبكي فوق رأسِك ، لكن الآخرين، أولئك الذين هم على قيدِ الحياة هناك يرَوْنَ ابنتك..لا.. لا أحد يرى ابنتَك إلا أنت.

لقد أُسدِل الستار..ليس مهمًّا مَن كانوا وراء تدميرك....سواء رأوْكَ أم لا، المهم أن ترى الرجال وابنتك في نفس الوقت يئنون ويتأوّهون. ترى ابنتك قادمة، راكعةً بجانبك مستسلماً .. تراك وتصرخ بصوت عال:

أمي استيقظي !

وأنتَ.. الذي لا يُقهر منذ سنوات، تقول لها هذه المرة أيضًا بدافع العجز:

لا أستطيع الإستيقاظ ؟ أ

عندما تسمعُ ابنتُك ذلك تضعُ نفسَها على رأسك وتقول:

هذاالكلام ليس صحيحاً يا أمي! أنت بالنسبة لي...

لا تصدميني يا أمي !

أنهت الأمُ الدردشة.

لقد وعدتِني أنك ستعتني بي يا أمي. لقد وعدتِني بذلك

لا تتركيني وحدي أبداً يا أمي! لقد وعدتني بذلك من قبل.

تسمع أحاديثَ ابنتك في صراخِها وأنينها، فترد عليها قائلة:

لم يكن بيديّ ياابنتي !

تقول ابنتك وهي تئن وتصرخ:

استيقظي ياأمي!

الأم: يمكنني الذهاب وحدي..

البنت : سأذهب معكِ أيضا.

لا تتركيني وحدي!

عندما تسمعين هذه المحادثة، يرتعد جسدك كله،وتنهملُ الدموع من عينيك.

هذا ليس بالأمرِ الجيد... يجب أن تعيشي
لا يافتاتي الحلوة! يجب عليك البقاء على قيدِ الحياة..
(كيني) يجب أن تكوني على قيدِ الحياة.. يجب أن تتذوقي متعةَ هذا العالم.
سوف تندم قريباً على هذا القيل والقال.. ستندم لأنك دعوتَها تفرح بهذا العالم.
أنتِ نفسُك تعلم أن عالمَك لم يكن به متعة، و تعلم أن هذا العالم ليس به مايمتعها...
أنت نفسُك لم ترَ أو تذُق أي متعة في الدنيا سوى الألم.
أنت تخجل من كلامك المتهور. هل تريد أن تقول لابنتك:
تعالَيْ يا ابنتي أنتِ معي أيضا. تعالَيْ.. اذهبي معي، لقد خرجنا من هذا الطين. وسنذهب إليه قريباً..الهواءُ هنا ملوَّث وقذر.. الناس قساةٌ هنا، وهو خالي من ابن آوى والضباع.
تم العثور على الناسِ ذوي القرون والذيل. ولهذا يجب أن تكوني معي.
أنت موسيقى بريئة يا (تيرا)
يجب عليكِ أن تذهبي معي... هؤلاء الناس ذو ذيول وقرون.. سوف يأكلونك ويدمرونك.. سيفعلون.

لقد قلتَ هذا للحظةٍ قصيرة.. قصيرة جدًا، قصيرة..
تستسلم ثم تندم على ذلك مرة أخرى ولا تريد ذلك..
أنت تماطل طوال حياتك.
أخبر ابنتك.. أخبرها انك لا تريد أن تقول لها أن تخرج معك من هذا المستنقع...
مكان واحد تريدها أن تعيش فيه، ولكن مع مَن وأين؟!
لا يمكنك أن تقرّر اثنين معاً.
حزين بين حجرَين من دقيق يا (ماندهاي).. من الصعب عليك اتخاذ القرار.
صعبةٌ هي مثلُ أيام فقرك، فما زلتما قلبَين،وهذا انفجار آخر قادمٌ لكما في الهواء.

مدينة فولدا - ألمانيا
08.03.2021

(٦)

"سكرتير مدرستنا"

في كلِ مرةٍ تطأُ قدماه بيتَنا، كانت والدتي تتجهّم وتبكى وتقول بحزن :

لقد عاد!.. اللسانُ الأسودُ سيئ الطّلعة ! كم من الناس هناك مثله !

بغضِّ النظرِ عن مدى سوءِ المقابلة.

فقال أبي لأمي بغضب : ما الذي أصابنا؟

هل رأيتِ شخصاً آخرَ مثله؟ الرجلُ الفقيرُ يعاني من الوحدة ومجيئُه لايشكّل عبئاً علينا. تعرفين أنه لا يشربُ حتى كوبًا من الشاي، فما هي مشكلتُك يا امرأة؟!

*****

في الواقع، كما يعتقد والدي، كان شخصاً جيّدًا، وكان لا يُزعج أحداً. منذ سنواتٍ مضت، كان كاتبَنا.. كاتبَ مدرستِنا، ونحن أبناؤه.. كنا نسميه "كاتب صاحب". وكان أسلافه يقولون "كاتب صاحب"، ولكن وفي غيابِه كانوا يقولون: "كاتب" فقط.

عندما أرسلنا أحدُ المعلمين إلى إدارةِ المدرسة لشيء ما،

فيقول: اذهبوا وأحضروا الكاتب.
تم وضع مكتب القتال القديم والمهترئ بالقرب من بوابة مكتب المدرسة.
كان مكتبُه مليئًا دائماً بالملفّات والأوراقِ وقصاصاتِ الورق. في كل مرة اعتدتُ أن أذهبَ إلى المكتب، وأرى الكاتبَ يكتب.. هو دائما ماكان يكتب بقلم زيت التربنتين الأسود
كان كثيراً ما يُعجبني قلمُه.. يعجبني كثيراً.

كنتُ ألاحظُه مرة، وكنتُ أخشى أن أقتربَ من مكتبه وأسأله عن قلمه.. كنتُ أسألُ أسئلةَ الأطفال الغريبة. وأذكر أنني سألته ذات يوم:
- كاتب صاحب! قلمك لا يصنع لوناً خالصاً؟
ونظر إلى قلمُه عن كَثَبٍ وقال:
لماذا؟ لون نقي، ولكن في المرة الأخرى سيكون هناك لون آخر.
كان يتباهى بقلمِه.. أعجبني قلمُه كثيراً.
وكان لدىَّ الكاتب "دريشي" من الفولاذ الداكن، يرتديه دائمًا في الربيع، في الصيف، في كل وقت.. لقد كانت كبيرةً بعضَ الشيء.. ربما تم تقصير بنطالِه وفقًا لطوله..(كيرتي) كاتب "جيهاي"

أخرج قلم زيت التربنتين الأسود الذي أعجبني كثيرًا، والذي اعتاد أن يضعه في جيبِه العلوي.

كان الكاتبُ دائمًا في المكتب، ونادراً ما كان يغادره، إلّا عندما كان يذهب مباشرةً تحت شجرة التوت في المدرسة. ويتّكئُ تحت ظلّ الشجرة وينام.

كانت تلك عادتُه.. لم أكن أعرف بالضبط ما السرّ في ذلك ولم يكن الأمرُ مهمًا بالنسبة لي. كل الذي كان مهمّاً هذا بالنسبة لي أن أرى قلمَه في جيبه وما إلى ذلك.

كان قلمُه يعجبني كثيراً.

***

مرّت سنواتٌ مثل لمحِ البصر. لقد مرّتِ السنواتُ على تقاويم الحائط.. وفي نهايةِ كلِّ عام ، كان والدي يتغير، كنت أتفهم ذلك.

والدي.. كل عام كان يكتب التقويم :

الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان... ثم كنت أهمس لنفسي:

كم هي السنة!! لكن في النهاية أدركت أن تلك السنة كانت مثل رمشة عين، وكان والدي يحملُ تقويمًا آخر،بل تقويمات متعددة.

لقد تغيّر الحال.. انتقلتُ من تلك المدرسة إلى مدرسة أخرى. امّا الكاتب فقد اعتدتُ أن أراه في بعض الأحيان.

تقاعد الكاتب.. لقد أخبرني والدي بذلك عندما تقاعد.

وكان منزلُ الكاتبِ بجوارِ منزلنا..كان يقع فوق متجر البقالة الوحيد.

كان بيتُ الكاتب بيتًا نموذجيًا وغريبًا في جزيرة"جوزرحمة"، وكان منزلُه على جانب واحد.

كان كتفُه يعرج، وكان كما لو أنه انحني كتفُه على قلبه.

عندما كان أحدُهم يتجول في منزلهم، جاء صوت طقطقة من المنزل.. كان ينهض ويرتجف. كان يهتز كثيرًا لدرجة أن أحدهم اعتقد أنه كان زلزالًا. كان الكاتب ينزل من المنزل في المساء لتناول العشاء، وكان هناك العديدُ من محلاتِ البقالة القريبة.. جلس للحظة.. رأيته كالعادة، نائمًا ويفكر.

لم أكن مهتماً بما كان يفكر فيه.. كنتُ مهتمًا بمعرفة ما إذا كان لا يزال معه نفس قلم زيت التربنتين الأسود أم لا؟

ثم كنت أنظر إلى قلمه للحظة ويعجبني قلمه.

يعجبني كثيراً.

***

لم أرَ الكاتبَ منذ فترة. لم يقترب من متجرِ البقالة هذا منذ فترة .

وصلتُ هناك في إحدى الليالي وقد حلمتُ أن المنزل يحترق. وفي اليوم التالي قال (إيجان كوتشيجي) الذي عزاه:

كاتب صاحب"البقاءُ لله"، وقال له آخر:

- كاتب صاحب.. شدّ حيلك.

وبعد بضعة أيام، وفي اليوم الاول من رمضان قبل الإفطار، صبيان كاتبان كبرا للتوّ ويذهبون إلى" تابانج" على الطريق وكانوا يبيعون، وعندما وصلوا إلى المنزل، أصابهم صاروخ على بعد خطوات قليلة، فقتلهما معاً.

وبعد تلك الحادثة، احتفظ (آل كوتشيغي) باسم الناسخ باعتباره اللغة السوداء. عندما يكون في الطريق كانوا ينظرون إلى السوق، وكانوا يتهامسون:

لعنك الله يا صاحب اللسان الأسود.

فنظر إليه الآخر بالحقد وقال:

أنظر إلى وجهه! لقد عاد إلى العالم.. لسان أسود مؤسف!

*****

في السنواتِ القليلةِ الماضية، تغيَّر شكلُ وصورةُ "كوتشيه" و"جوزرما كمال"... لقد أصبحوا كبارًا ومتهالكين. لقد تغير الناسُ أيضًا من طفولتِنا القديمة، إلا القليل.. العائلةُ والآخرون جميعُهم انتقلوا وغادروا.

***

لا أعرفُ كيف تم جرّ الكاتب إلى منزلِنا..ربما اتَت به ربّةُ منزل.

كنا قادمين. وكان يتحدث مع والدي. لقد تغير الكاتبُ أيضًا. لقد كان متوتّراً.

كانت خدّاه غائرتَين وأسنانُه تتساقط. لكن الكاتبُ الذي كان كثيرٌ من الناس في الماضي غاضبين منه، كان هادئًا وصامتًا دائمًا، وكنتُ أراه يتحدث كثيرًا في موضوعاتٍ مختلفةٍ مثيرة الاهتمام.

قال ذات يومٍ لأبي :

هل تعرف ما هي الحياة؟

قال له والدي:

لا... أخبرني!

فنظر الكاتبُ نظرةً جديّةً وأجاب:

- الحياةُ شيءٌ عديمُ الفائدة.

حاول والدي أن يقنعَه أنَّ الحياةَ ليست كما يعتقد، فلم يسمح لأبي وأضاف :

الحياةُ مليئةٌ بالحزن..بالحوادث!

أجاب والدي:

- قال أحدُ العلماء أن الحياةَ مليئةٌ بالحوادث.

ضحك الكاتبُ بصوتٍ عالٍ على كلامِ والدي، ولا يزال يضحكُ على والدي..

اقترب منه، ثم قال ببطءٍ وهدوءٍ واستهزاء :

- إذا صرخت! اصرخ! اصرخ في حالة سكر! اقتل!!...

لا بُد لي من قتل كل الناس! سأقتلُ كل الأشرار، كلَّ الأشرار في الشارع.

وعبسَ الكاتبُ الذي تغَيَّر لونُ وجهِه وتابع:

- ولكن أنا...! لقد فهمت، لكن لا يمكن أن أقتل. لسوءِ الحظ، لا يمكن أن أقتل.

لا أستطيع حتى قتل طائر! لم يسبق لي أن قتلتُ طائراً.

أنا أكرهُ ذلك.. أكرهُ القتلَ والنزيف.

ثم كأنه يقول آخر كلماته، أطلق تنهيدة عميقة وقال:

أتمنى! أتمنى أن أقتل! فجأة.. غيَّر كلماته :
لا! لا! أنا أكره القتل. أنا أكره أن أقتل.
***
في أحد الأيام، جاء الكاتبُ إلى منزلنا وكان يتحدث مع والدي .. رأيت أنه لم يكن لديه قلمٌ في جيبِه العلوي. أنا أحب ذلك القلم. يعجبني كثيرا. ولغيابِ قلمِه خفق قلبي وتألّم صدري حينما تفاجأت بذلك.
سألت:
كاتب صاحب! ماذا فعلت بقلمك؟
نظر الكاتبُ على الفَورِ إلى جيبِه العلوي، وابتسامةٌ على شفتيه :
- قلمي له لون نقي!
ثم سرعان ما غادرت الابتسامةُ شفتَي الكاتب واستمر في النظرة الجادة للغاية.
قلمي! لقد صنع قلمي لونًا نقيًا! لا! لا! لم يكن قلمي نقياً.
لم أعد أهتم. لقد مزقته إلى قِطع... لقد رميته في البحر.
نظر إلي برُعبٍ وكرّر بكل تأكيد:

كما تعلمون، لقد ألقيت قطعةَ قماشه في البحر. والماء سوف يأخذها بعيدا.

لقد كنت في مزاج سيئ في ذلك اليوم. كنت حزينا.. الحزن مثل نار في الجسد يحرق العظام.

أردت أن أذهب إلى رُكنٍ وأبكي، لكن لم أستطع الحصول على ما لم أستطع أن أتحمله بسبب عار الناس الذين كانوا هناك.

حتماً كان علي أن أقفَ بينهم بهدوء وبرود.

جاءوا ليأخذوا جثمان والدي إلى المقبرة، وبمجرد انتقالنا أدركتُ أن كلَّ أصدقاء والدي ومعارفه قد جاءوا إلا الكاتب!

ولما لم يأتِ حزنتُ وقلتُ في نفسي:

لقد كان هذا الكاتب شاباً!!

*****

عندما وصلتُ إلى المقبرة، صُدمتُ لرؤيته وتوقفت كالميّتِ في مكاني.

لقد كان هو نفسُه الكاتب.. لقد ذهب إلى هناك قبل الآخرين.

عندما وضعوا والدي في القبر وأهالوا عليه التراب ، جاء الكاتبُ إلى جانبي وعزّاني.. قلت له:

لقد تركني والدي وحدي...

تركك وحدك!

فأدار لي وجهَه وقال :

يكون الإنسان وحيدًا دائمًا.. جاء إلى العالم وحده.. وسيغادرُ وحده، وأشار: ويترك هذه الدنيا وشأنها! ثم ظهرت ابتسامةٌ عابرةٌ جداً على شفتَيه المُغلَق :

كلُّ شيءٍ هو خرافة... نحن نخدعُ أنفسَنا!

ثم أخبرني أنه أراد إظهار التعاطف مع والدي:

الرجل الذي رحل.. رحل!

سينساهُ الجليس، ف"البعيدُ عن العين، بعيدٌ عن القلب!"

لقد تم نسيان أطفالي أيضًا منذ رحيلهم.. ولكني أذكرهم من حينٍ لآخر! في بعض الأحيان فقط! وكذلك والدك

سوف تتذكر والدك من وقت لآخر. أحياناً ربما مرة واحدة في السنة!

***

بعد وفاة والدي، توقّف الكاتبُ عن القدوم إلى منزِلنا.. غادر منزلَنا. ونادراً ماكان يغادرُ منزلَه.. اعتاد أن ينتقل من جانب البيا إلى الجانب الآخر في البيت الصغير، منزله.

كان يمشي... كنت أراه من على سطح منزلنا ويداه في جيبه،

ورأسَه إلى الأسفل، يسيرُ بسرعة من أحد جوانب البيت إلى الجانب الآخر منه.

يتحدث ويضحك مرةً أخرى.. يقف في مكانه ويضحك.. يضحك بصوتٍ عال...يضحك ويضحك ثم يبدأ في المشي مرة أخرى.

كم مرة قررتُ أن أذهبَ وأسأله لماذا تضحك ؟ ولكن كان من السابقِ لأوانِه اتخاذ هذا القرار.

لقد تراجعتُ عن القرار، لعلّه يخبرني سببَ ماهو عليه.

***

في ذلك اليوم ، كان لا يزال في بيتِه.. لكن أعتقد أنه كان أكثرَ صرامة من الأيامِ الأخرى.. كانت هناك مايشبهُ الكدمات حول عينَيه تكادُ تخفيهما.

الكاتبُ، كعادته من الأيام، من هذا الجانب من البيت إلى الجانب الآخر.. كان يمشي بسرعة، لكنه لم يضحك على الإطلاق في ذلك اليوم. كان يبكي على الطريق وهويغادر. كان يهزُّ رأسَه وبكى.. يبكي كثيراً مثل المطر، وبعد هذا البكاء الشديد توقف فجأة.

ثم جلس على الأرض وبدأ يضربها بكلتا يديه، ثم يضرب رأسه بكلتا يديه كأنه يريد أن يمزقَ رأسَه إرَباً.

أركضُ وأمسك بيدَيه بقوة، حتى لا أسمح له بضربِ نفسِه.
لقد كنتُ بعد أن رأيتُ ذلك المشهد في ذهول، وأصبحت ساقاي كالحجارةِ لا تستطيعان الحركة، بغض النظر عن مدى محاولتي إيقافه ، رأيتُ أنني لا أستطيع البقاء، حيث تم تسميري.
أردت أن أناديه من أعلى السطح وأقول له:
كاتب! كاتب صاحب، لا تلُم نفسك! في سبيل الله، لا تلُم نفسك! لم أستطع إيقاف صوتي!
وأخيراً رفع الكاتب يدَه عن رأسه.. ربما سيموت.. توقف عن ضربِ رأسِه وعاد إلى مكانه وتوقف... بدا ميتاً تماماً. عندما نظرتُ إليه شعرتُ بنوعٍ من الخوف... كان جسدي يرتجف. أردت أن أغمضَ عيني حتى لا أراه مرة أخرى. لكني لا أعرف لماذا لم أفعل ذلك؟ لماذا لم أُغمض عيني ؟
لقد كنتُ مجردَ متفرّج، كأنني أشاهد فيلماً سينمائياً أو فيلم تلفزيوني.
وقف الكاتبُ في مكانِه ونظر حول البيت.كان ينظر بعناية.. كما لو كان يبحثُ عن شخصٍ ما، ثم ببطءٍ، اقتربَ من شجرةِ السنطِ الوحيدةِ القديمة والمُسنّة.

لقد كره تلك الشجرة كثيراً.. في كلّ مرةٍ أرفعُ ورقتي في هذا الاتجاه وأفعل ذلك، فإن خيطي الورقي يتعلّقُ بها.. تلك الشجرة هي عائقٌ كبيرٌ أمام الطيران ..

ركع الكاتبُ أمامَ تلك الشجرة وصاح بصوت عالٍ:

شجرة الحياة! الشجرة... تلك الشجرة! أقول لك يا شجرة... وأنا استمع إليك..

ثم أمسك الكاتبُ بجذعِ الشجرةِ وصوتُه كان يشبه البكاء قليلاً.

قال ببطء:

شجرة الحياة! الشجرة الحلوة، إستمعي إلى ما أقول؟ لقد نمتُ الليلةَ الماضية.. سأحكي لكِ حلمي ياشجرةَ الحياة...

"حلمتُ أنّني أمشي في الزقاق، ويأتي الناس الذين لديهم قرون، ولديهم أيضا ذيول مثل الفيضان على زقاقنا وممرّنا...

يأتون فيُدمّرون المنازلَ ويقتلون أطفالنَا الصّغار، ورجالُهم يحفرون القبورَ ويشعلون النار فيها. إنهم يمزقون شواهد قبور موتانا إلى أشلاء.

إنهم يدمّرون كلَّ شيء بالنسبةِ لنا... كلَّ شيء!!!

رفع الكاتبُ صوتَه أعلى وأعلى :

أنا أناديكِ ياشجرة! اسمعي، أنا أقول لكِ! لقد دمّروا كلَّ شيءٍ بالنسبة لنا، حتى أنهم يضعون علامةً على شواهد قبور موتانا.
ثم توقّف الكاتبُ والدموعُ انهمرت من كلتا عينَيه، ونزل الدمُ ببطءٍ من زوايا شفتَيه...بعدها بقي الكاتبُ صامتًا وهادئًا، ثم أحنى رأسه على عجَلٍ مثل شخص ينحني إلى النهر وضرب بجذعِ الشجرة، ولم يرفع الكاتب رأسَه بعدها.

(٧)

" الملاحظة الأخيرة"

عندما كنتَ في الخلاء، كان الثلجُ يتساقط عليك دون توقُّف.
المنطقة صخرٌ وحجر، جبلٌ وسهل، وكانوا نائمين تحت الثلج وأنت أيضاً معهم.
كنت نائماً.. كنتَ جزءًا من تلك الصخرةِ وذلك الحجر، وجزءًا من ذلك الجبل والسهل.
الثلجُ يتساقط عليهم،وأنتَ هناك في نفسِ الجوِّ منذ الصباح.
وكان الجنودُ الآخرون على الجانبِ الآخر من الهاوية، من فوقِكم، من أوّلِ مطرِ الصباح.
كانت حرباً والرصاصُ يتساقطُ كالثلج.. وكان ذلك بالقُرب من الجبهة، وليس مباشرةً على الرأس.
كان (تشاشت) هو الذي أُصيبَ برصاصةٍ في تلك اللحظة ، ورفعتَ رأسَك ببطءٍ إلى السماء ، لتجدَ طريقاً للخروج. الطريقُ للهروبِ من ذلك الجو الذي كنتَ محاصرا فيه،
لامفرّ فيه من الهروب، وهناك العساكرُ من حولك.
لقد مرَّت بضعةُ أيامٍ قبل أن تقرّرَ تركَ الجندية والهروب

يا(كيني)! في كل مرة أردتَ الهرب، لم يكن لديك الوقت..
لقد كنتَ واحدًا من هؤلاء الأبرياء الذين شعروا بالذنب... الشعور بالذنب تجاه شيءٍ ما.. لقد ذهبتَ إلى الجيش وكان لديك مُسدَّسٌ في يدِك.. أنت لم تقتل أحداً أبداً..لم تقتل حتى قاتلاً. ولكن بمجرّد أن يكونَ لديك مسدسٌ في يدك ، كنتَ تشعر بالسوءِ تجاهَ نفسك...
لم تكن تعرف في الأيامِ الأخيرةِ تحوُّل هذا الشعورُ إلى حزن، وكان ذلك الحزنُ يكبُرُ في داخلِك أكثر... ذلك الحزنُ الكبير كان يسيرُ بداخلك...الحزنُ كان واضحاً أيضاً من وجوهِكم.
لنفس السبب، كان هناك شخصٌ واحدٌ قريباً منك ، لرؤيتك.. هذا الشخصُ مثلُك.. كانت هناك ريبةٌ في الأمر.. فكرةُ الدفاع عن الوطن الأم صارت موضعَ شك، حتى قبل أيام قليلة، قال لك زميلُك (إيلال جان) الذي جاء إليك مرة أخرى للحصول على قرض: كم يوماً وأنت على هذا الحال ، أرجو أن تكون بخير.
في ذلك الوقت، كنتَ مشغولاً بكتابة ملاحظاتك في دفتر يومياتك.
لقد أعطيتَه قرضاً، لكنك لم تُجب على السؤال!

الديون الخاصة بك..لقد اعتدتَ دائمًا على إقراضِها لزميلك في الغرفة ورفيقك في الغرفة،ولكنَّك في الغالب لم تحصل عليها.. كنتَ تعطيه السجائرَ والسكرَ والشاي الجافّ والنقودَ وما إلى ذلك....

كنت تقول:

المسكينُ في ظروفٍ ضيّقة وعنده عيال!

لقد أصبحَت عادة.. يدُه الممتدة، وقلبُك الرحيم!

******

اليوم من الصُّبح كنتم حاسمين ومصمّمين علي الهروب، وكنتم ستفعلونها.. أنت لا تريدُ الدفاع عن الوطن الأم! توصلت إلى استنتاج مفادُه أن البندقيةَ التي في يدِك لم

تكن دفاعاً عن وطنكم الأم. كانت للدفاع عن هؤلاء.. دفاعاً عن كاسان.. لقد تم إرسالك إلى الجبهة، وقبل أن يتم إرسالك إلى الجبهة للدفاع عن الوطن الأم ، كان دائماً حلماً جميلاً بالنسبة لك وربما مثل حلم جميل!

لقد أحببتَ أحلامَك كثيرًا. ولكن أحلامك جاءت مختلفة..

كانت السماءُ تُمطر واضطربت أحلامُك ولم تعد مستعدًا للدفاع عن الوطن الأم.

كيني ! لهذا السبب أردتَ الهروبَ من الجيش ، حين رأيتُ الآخرين قد تعرّضوا للتعذيب والقتلِ من أجل الحرية، لكنك عليك أن تصدّق أنَّ البندقيةَ التي تحملها لم تكن من أجلِ الحرية.

****

لقد رفعتَ رأسَك للسماءِ ونظرتَ للتوّ إلى المناظر الطبيعية البعيدة. صعبٌ هروبك إذا جاءت رصاصة اخترقت صدرَك وانطلقَت المقذوفات إلى جدار الغلاف الجوي!

الآن أنت تتكئ على جدارِ الغلاف الجوي، وساقاك ممدودتان. كان رأسُك منحنيًا إلى جانب واحد، وكان هناك خطٌّ رفيعٌ من الدمِ يبرز من زاويةِ فمِك نتيجة البرد.

كان لديك العديدُ من الأصدقاءِ في الماضي ، وكان أفراد عائلتِك وأصدقاؤك كُثُر، لكن الآن في ذلك الجو، وتحت وابلِ الرصاصِ ومطرِ الثلج أصبحتَ وحدك.

وحيد.. لم يكن هناك من يبكي فوق رأسِك! لم يكن هناك أحدٌ ليموتَ من أجلك.

قام بتمشيط شعرِه وأمسك برأسِه ولحيته. ولم يكن هناك من يتأوّه ويصرخ..

كنتَ تتكئ على جدارِ الغلاف الجوي وحيدًا.. صوتُ خطيً قادمة ببطءٍ نحوك من الجو..لقد كان هو نفسه القادم نحوك ، هدأ عندما رآك، وسأل وهو يرتجف:

ماذا فعلت يا إلهي.. هل أكلت رصاصة؟

تقدَّم ووضع يدَه على كتفَيك وقال بحزن:

هل قُتِلت ؟ وكان لونُه شاحباً.. لقد قفز بسبب الخوف من القذيفة التي كانت تتساقط.. أو قد أصابتك رصاصة...كان شاحبا،وكانت يداه ترتجفان من البرد، و أنت ترتعش أيضاً.

عندما وضع يدَه على كتِفك، وقعتم في عناق..أنت مثل الجبل حازمِ وقوي. ولكن الآن أصبحتَ في أسفل منهاراً..

لقد تم رشّك وأغمض عينيك ثم أسرع بيديه المرتجفتين وفتح يدك ثم بدأ (بشتاب) بتنظيف جيوبك. المال والسجائر وأخرج دفتر ملاحظاتك من جيبك، وأخذه معه وغادر بسرعة.

****

لقد وقعت في نفسِ الجوّ من العناقِ حتى نهاية صلاة أخرى..

كان هناك عددٌ قليلٌ من الفرسان الملتحين ذوي الأيدي السوداء يمرّون بجوارِ مكاني في تلك الأيام، وقد قتلوا عدداً

من الجنود.. ربما قتلوك أنت أيضاً، إذ كان قتلُ جندي مكافأة لهم..... لقد كان الجنودُ يُقتلون ويموتون دائمًا.

لقد كانت العادةُ أن يموتوا، دون ان ترتعشَ أيديهم ووجوههم كانوا يراقبونك.. لقد ضربوا الجناحَ الذي أنت فيه.. لديهم عشراتُ الرصاصات لاطلاق النار.. لقد قطعوا رأسَك ووجهك وشجّوا صدرَك.

لم يعد هناك دماءٌ تسيل منك. تجمّد رأسُك ووجهُك وصدرُك.. لقد فعلوا ذلك مع أحدِهم بالقرب منك، دخل الغلاف الجوي.. ركلوه.. طرق البابَ وأخذ الأسلحة التي كانت بجانبك، وفتش جيوبَك الفارغة، ثم خلع حذاءك من قدميك وأخذه معه.

انت لم تُعِدّ حفرةً لتسقطَ فيها، حيث سقطت وحدك.

وفي اليوم التالي، نع آذان الصباح ، سئم كلبان من أكل وجوههم وأعناقهم وأيديهم.. سئمت (بايت)، وغادرت الكهف الذي قضيت فيه الليل وحدك.

وقبل وجبتك، أخذوك إلى غرفتك وألقوا بك في زاوية الممر وفرشوا فوقَك ملءَ الخيمةِ ترابا. خذ مكانك هناك في غرفتك.. لقد أخذوا مثل ما أخذه زميلُك في الغرفةِ من جيبك بالأمس..

وقد وضعوا السجائرعلى زاوية شفتيهم وهم يدخنون... وفي دفترك، آخر الملاحظات التي كتبتها:

"شوكة الصحراء تشيخ."

لكن الزهرة تموت عندما تكون صغيرة.

الصلب - ألمانيا

2020-2-2

(٨)

"المحكمة"

وضعه على الطاولة، وأخذ احمدُ كاساً من خمر، وأخذ "سي دي" لبيتهوفن رقم 3، ووضعه في الآلة، وأتى بمفرده،
وجلس مرةً أخرى.. وما إن ارتفع صوتُ الآلة حتى صرخت زوجته من المطبخ:
لقد مات، هل احتفظت بنفس القرص مرة أخرى؟ يا إلهي، لقد جنّنتني ! ما هذا؟
لا أنا ولا أنت تفهم! لِمَ تفعل ذلك؟
وتابعت زوجته:
- في كابول كنتُ أصمُّ أذني عندما أسمعها من حسن باسمل، هذه الأشياء لاأحبها.
لم يسمع أحمد حديثَ زوجتِه، فمدّ يدَه ليأخذَ كأس النبيذ.
عندما رأي الكأسَ فارغة.. فارغة إلى الأسفل ، ذُهل..
لم يلتقط الهاتفَ في الحال عندما رنّ، ثم نهض، وغادر إلى الهاتف، ورفع الهاتفَ وقال ببطء:
نعم

أجاب الحزب على الفور:

أيها الخائن الحقير..

لم يكن قد انتهى من حديثه بعد، عندما أغلق أحمد الهاتف..

سألته زوجته من المطبخ:

من كان؟

- لم أفهم، لم يتحدث وأغلق الهاتف.

قال هذا وفكْرٌ وقلقٌ بشأن من يكون هو..

فجاء وجلس في مكانِه كأنه مهمومٌ وحزين.

أخذ كأسَ النبيذ، وكان لا يزال فارغاً.. نظر إلى الزجاجةِ بذهول... كانت فارغة تماماً، وهمس في نفسه:

لقد فعلتُ ذلك!

أنا أفضلِ صديق

ثم سأل زوجته بصوت عالٍ:

أيتها امرأة! هل شربتِ الكاس ؟

خرجت زوجتُه من المطبخ بغضب وصرخت:

هل أنت مجنون؟! أم أنك تختلق عذرًا لعدم الذهاب إلى حفلة فرزانة الليلة..

أخبرني عبر الهاتف أنه اشترى أفضل النبيذ الفرنسي القديم لحفلة الليلة، فأي من هذه الخمور السيئة وضعتها على شفتي؟
قالت زوجته ذلك وذهبت إلى المطبخ وتابعت من هناك:
لقد مات، لا تناديني بعد الآن، سأستحم.. أتفهم؟
أحمد لم يقل شيئاً ردًّا على زوجتِه، طلب كأساً مرة أخرى، ورفع الكوب، ورأى أن هناك يدًا تمتد من الجانب الآخر من الطاولة وتأخذ الكوب.
رفع أحمدُ رأسَه... رأى رجلاً مجهولاً يجلس أمامه.. من؟
وتفاجأ برؤيةُ الرجل المجهول. لقد كان متفاجئًا جدًا. رجل مجهول في منزله.
لم يستطع أن يصدق ذلك. ظن أنه كان يحلم.. تفاجأ بالرجل، فسأله : من أنت؟ متى أتيت إلى هنا؟
قام الرجل المجهول بتجرُّع الكأس حتى النهاية دون الإجابة على سؤاله، ووضع الكأس أمامه مرة أخرى وقال
صُب!
كان أحمدُ منزعجًا. وأعاد سؤاله بنفس الانزعاج:
قلت من أنت ومتى أتيت إلى هنا؟
حدّقَ فيه احمد ، وابتسامة لطيفة على شفتيه

(ريد).. رجل مجهول.. لا تخف!

ريد!

وأشار أحمد بغضب نحو ريد قائلاً:

أيها الأحمق، اخرج! ثم أضاف بصوت يشبه الصراخ:

اخرج! وإذا لم تخرج ، سأتصل بالشرطة الآن.

وضع الرجلِ المجهولُ يدَه ببطءٍ على ذراعه، وأخرج مسدس "ماكروف" من خصره، وقال:

- اجلس. وإلا سأطلق النار على فمِك.

ثم ظهرت ضحكةٌ خفيفةٌ على شفتَيه الجافة والمتشقّقة وأضاف:

- لا، من المؤسف أن تتلوثَ يدي بدمِك النجِس...

قفز أحمدُ عندما رأى المسدسَ الملون، وجلس وسأل ببطء شديد:

من أنت؟ ماذا تريد مني!

نهض الرجلُ المجهول ومشى نحو جهاز الصوت، وأوقف قرص بيتهوفن الذي كان لا يزال يعزفه.

أخرجَ من جيبِه شريط كاسيت ووضعه في الآلة الصوتية، وارتفع صوت الكاسيت:

السلام عليكم. ..

أطفأ الرجل المجهول الشريط وسأل أحمد:

هل تتذكر هذا الصوت؟

أجاب أحمد، الذي كانت رائحةُ الخوف لا تزال تفوح من وجهُه، بخوف:

- نعم، سمعت هذه الأغنية في الراديو والتلفزيون

فقط من الإذاعة والتلفزيون؟

نعم

فغضب الرجل المجهول وسأل بغضب:

لماذا تكذب؟ ثم قام بتصوير بعض من شريط الكاسيت، تم تشغيله مرة أخرى:

"أيها الرفاق! يجب أن ندافع عن ثوراتنا. يجب أن نتطوع في صفوف الحرس الثوري.. فلننضم إلى القوات المسلحة جنباً إلى جنب.. يجب أن ندافع عن بلدنا. .. الوطن

دعونا لا نسمح بيننا بوكرٍ من الجواسيس والأجانب.

وقف الرجلُ المجهولُ وسأل أحمد :

هل تعرف هذا الصوت؟ صوت من هذا؟

تغير لونُ وجهِ أحمد مرة أخرى. هذه المرة تحول لونُه إلى اللون الأحمر.. الأحمر والأزرق

قال في خجل:

هذا أنا... نعم

- إذن لماذا تكذب أنك سمعت فقط من الراديو والتلفزيون؟ في هذا الحزب ألم تقل بنفسك: "أيها الرفاق!" يجب أن ندافع عن ثوراتنا.. يجب أن نتطوع في الصفوف.. دعونا نوحّد قوى الثورة وننضم إلى القوات المسلحة جنباً إلى جنب، ولا نجعل الوطن وكراً للجواسيس والأجانب.

عاد الرجل المجهول إلى نفس المكانِ الذي كان يجلس فيه، وجلس مرة أخرى وقال:

- وقد ناديتَ اسمي واثنين أو ثلاثة من الأعضاء الآخرين كمتطوعين في ذلك الحزب، وكتبتَ أسماءنا.

أنت من أرسلنا إلى الحرب!

****

تساقطت حباتُ العرق على جبين أحمد وكان فمه جافًا، ويدُه ترتجف..

كان هناك رسم تخطيطي في يدِه، مدَّ يدَه وسحب الكاسَ إليه، وملأ الكأس بالنبيذ.. تظاهر برفعها.. ترك الرجلُ المجهول حقيبته مع الكاس، وقال: لا يجب أن تشرب! هذه الزجاجة لي. كل هذا مني. هل فهمت

هذا كل شيء

ثم أخذ الكأسَ وأخذ نفسًا.. الرجل المجهول يضع ظهر يده على شفتَيه ويمسحها، ثم قال :

حسنًا يا صديقي، انهض، وأنا سأغادر.

استقر المزيدُ من الخوف لدى أحمد. بينما كانت أسنانه تطحن؛

سأل:

أين.. أين ستأخذني؟

جبل الشهداء .. هناك من قتلتهم كلهم....

سوف آخذك إلى كابول راساً.. إنهم في انتظارك... سوف يحكمون عليك هناك.

وتوسل أحمدُ الذي كانت شفتاه ترتعش وعيناه تمتلئان بالدموع:

ما هو ذنبي؟ لقد كنت منفّذاً لأوامر النظام.. والله ماهو بذنبي في شيء.. لم أكن مختصًّا.. لقد كنتُ مجرّد جهاز إرسال.. وهذا كل شيء!

- أعلم أنك لم تكن مختصاً.. لكنك كنتَ حاملاً للموت.. لقد كنتَ فقيرًا جدًّا بالنسبة لنا!

نهض الرجلُ المجهولُ وتابع :

أسرع.. سيكون الوقت متأخرًا..

بعد سماع كلماته، انهمرت الدموع من كلتا عيني أحمد

قال وهو يبكي:

والله لقد حصلت مؤخرًا على تأشيرة دائمة. أتعلم!

هل حصلت على هذه التأشيرة الدائمة؟ لقد غسلت الصحون في الليل والجوّ البارد..؟

ولم يمنح الرجل المجهول أحمدَ الوقت الكافي لإنهاء حديثه..

وقال له :

- لا تتحدث كثيرًا، انهض لأنه سيكون قد فات الأوان.

ونادى أحمد_الذي كان لا يزال بين يدي الرجل المجهول_في الصالة الطويلة :

يا امرأة! ايتها المرأة!

أمسكه الرجل المجهول بقوة وقال:

هل مازلتَ عالقاً في عملك السابق؟ مازلت تطلب المساعدة من زوجتك!

أنا لست تحت أمرتِك لاتخاذ الاحتياطات اللازمة لزوجتك. قلت انهض.

ثم رفع يده وصفع أذُن أحمد بقوة..

صرخ احمد:

ياامرأة! أيتها المرأة

هزّته زوجته وقالت:

أحمد! أحمد! انهض ونم في سريرك.. هل ستبقى تلك هي عادتك كل ليلة أمام التلفاز وتنام على الأريكة!

2003، ألمانيا

(٩)

"حارتنا القديمة"

في كلِّ مرةٍ يرسو الحزنُ على كتِفي حتى يُنهي عليّ كلِّ شيءٍ تماماً.

للأسف ، كنتُ ذاهبًا إلى زقاقِنا القديم "طريق البدو"، الذي كانت فيه كلُّ أوقاتِ السعادةِ والحزن.

لقد تجاوزتُ طفولتي، وأصبحتُ أكبرَسنًّا عمّا كنتُ عليهِ في ذلك الزقاق من الماضي.

كان السوقُ مزدحماً..وكان هناك العديدُ من المحلاتِ التجاريّةِ المصنوعةِ من الطينِ الخام على التوالي..

لقد كانت المحلّاتُ مغلقةً، وكان هناك العديدُ من المارَّة من ذلك الباب. وفي وسط السوق، يقعُ متجرُ (أسد كولهوبيز)، وبقالة(بابا رمضان) في الجانب الايسر من محلّ(خير محمد) و دكان (خير محمد السلماني)، الذي كان يسميه الصغار (دلَك)، و يقع على الجانبِ الآخر هناك ورشةُ الخشبِ التي تقع أمام المسجد الكائن على الجانب الآخر من الطريق.

كان هناك العديدُ من محلّاتِ الدرّاجات، واحدٌ بجانبِ الآخر، وواحدٌ منهم منفرداً.

كان متجرُ (خليفة عطا) يعملُ في مجالِ إصلاحِ الدراجات.

كان (خليفة عطا) رجلاً طويلَ القامةِ يميّل قبعتَه دائماً على رأسِه، وكان يضعُ سيجارتَه في زاوية فمه.

أخذ والدي درَّاجتَه إلى متجرِه، إذ كان أحدَ معارفِ والدي.. كان شخصًا محترمًا معروفاً بالتّفاني والإخلاص.

لقد كان الأمرُ غريبًا بالنسبةِ لوالدي. في كل مرة يأخذ والدي دراجته إلى متجرِه لإصلاحِها يرسلني لإحضارِ الدراجةِ إلى المنزل. وحيث كنت ذاهباً، رأيتُ (خليفة عطا) قد شمّر عن سواعدِه وهو مشغول بالعمل بيدَيه السوداءَ والدُّهنية.

كان معه ذات مرة ابنُه الذي يبلغُ من العمرِ ستةَ أو سبعةَ أعوام.... كان أصغرَ منّي بسنتَين. لقد أحبَّه خليفة عطا كثيراً وكان قاسياً عليهِ جداً في ذاتِ الوقت.. لأنه كان يودُّ أن يتعلم العملَ بسرعةٍ وبشكلٍ افضل.

قال عنه خليفة عطا:

- بسم الله.. ذو موهبةٍ حسنة.. لقد أتقنَ العمل بسرعةٍ كبيرةٍ بالفعل..عندما كان طفلاً،كان يعملُ في إصلاحِ العجل، وكان

يقومُ بنفخِ الإطارات.. عُرِف بين الناس،و كبرَ وصار طويلَ القامةِ مثلَ والدُه.

وبعد أن أنهى الصفَّ السادسَ،كان يتركُ المدرسةَ من الصباح إلى المساء ، ما دامت المحلاتُ التجاريةُ مفتوحةً والمارةُ يسيرون جنباً إلى جنب ، فكان والدُه يعمل وأصبح مساعداً لوالِده، وكنتُ انا بالنسبةِ له أفضلَ صديقٍ وزميل.

انتقلنا من ذلك الزقاق، ومن تلك الشوارعِ التي شهدَت أفضلَ لحظاتِ حياتِنا التي قضيناها معاً في الطفولةِ والمراهقةِ السعيدةِ هناك.

ومن هناك ذهبنا إلى مكانٍ آخر، حيث كان جميعُ جيرانِنا غرباءَ عنّا ، إمّا جاؤوا من كلِّ جزءٍ من المدينة أو من كلِّ محافظة.. لم أكن على درايةٍ بهم.

لقد اعتدنا أن نحظَى بالمرَح، وفي كلِّ مرةٍ يكون الحُزن فيها على كتِفي، أهربُ من كلِّ هذا الحزن ، فكنتُ أذهبُ إلى ذلك الزقاق.. هناك الأزقةُ ممتلئةٌ بالصدق والشرف.

كان زقاق (كوتشهاي) مليئًا بالفروسيةِ الحقيقة.

وفي أحد الأيام سمعتُ أنَّ (خليفة عطا) قد خطبَ لابنِه الوحيد الذي كان قد كبر للتوّ ، فذهبتُ إلى هناك لأهنئ صديقي بخطوبته، وفي ذاتِ الوقت أهربُ من وطأةِ الحزن.

ذهبتُ مباشرةً إلى متجرِ خليفة عطا، وبمجرَّد وصولي أمامَ متجرِه ، وعلى عكسِ التوقعات، رأيتُ خليفة عطا وحيدًا وحزينًا.. لقد كان مستاءً. وخصَلات لحيتِه كانت بيضاءَ اللونِ وغير حليق. وكانت شفتاهُ جافّة وبها كدمات.

سألتُ عن السبب، فأطلق تنهيدةً من صدرِه وقال:

- بالأمس جاء (تلشي) وأخذ الطفلَ إلى العسكرية.

عند سماعِ هذا الخبر زاد حُزني. فقلتُ له :

- ولدُك لم يكن قد بلغَ سن الجيشِ بعد!

تابع بحزن:

- من يجيب عليك ؟ من يستمع إليك ؟ يقولون أنهم أمروا منذ يومَين بأخذِ الأطفالِ الذين بلغوا من العمر خمسةَ عشرَ عاماً وستةَ عشرَ عاماً.

وتابع بعد توقُّف:

- أولئك الذين كانوا على درايةٍ بالوقت، قاموا بالحلِّ الخاص بهم مُسبقًا...

وبينما كان يتحدثُ، ظهر أمام عيني طفلٌ يرتدي الزيَّ العسكري، بدا وكأن (الخليفة عطا) نفسَه أصبح جنديًا.

كلُّ أطفالِ ورجالِ الشارع ارتدوا الزيّ العسكري.. كنتُ أراهم في كلِّ وقتٍ وفي كلِّ مكان.لم يبقَ هناك أحدٌ الّا جرّوه للعسكرية وأجبروه على ارتداءِ الملابسَ العسكرية.

ماذا فعلَت بك ملابسُ الحرب..لقد كنتَ شابًّا، يا لك من رجلٍ عجوز! أنت لم تذهب..هم أجبروك بالقوّة. هم أجبروك على القتال. إذا لم تمسك الزِّناد، إذا حاولتَ الهرب، فسُيشعلون النارَ فيك ويقتلونك.

في تلك اللحظة، شعرتُ وكأن كابوسًا قد رأيتُه.

بعدها،غِبتُ فترةً عن خليفة عطا رحمَه الله،وذهبتُ إلى بيت "ديفاندفان"، وعلى الطريقِ كنتُ أسيرُ كما لو كان لديَّ عملٌ مهمّ للغاية، ولم يكن لديّ أيُّ شيءٍ مهم... كنتُ أعاني من الكوابيس وكنتُ خائفاً.

وعلى الرغمِ من مرورِ بضعة أيامٍ على إعطائي وثيقة إعفاء عسكري ، خشيتُ أن يجبروني أيضًا على الجُندية..

كنتُ معاقًا وبسببِ إعاقتي أعطوني شهادةَ إعفاء.

لكنني كنتُ أعلمُ أن الوثيقةَ لم تكن موثوقةً للغاية. كانوا كلما أرادوا المزيدَ يأخذون الجميعَ إلى الجندية... مريضاً كان او معاقاً. لقد سمعتُ كلَّ هؤلاءِ الذين كانوا يتجمَّعون في معسكرٍ للجيش، أنه كان منهم المرضي أو المعاقون، وكانوا يرتدون الزيَّ العسكري ويأخذونهم بعيداً ويقولون: "قاتلوا"

وإذا لم تُقاتلوا ستُقتلون.

لا أهدأ بسببِ هذا.. كنتُ مضطربًا ينتابُني الخوفُ والقلق. عدتُ إلى منزلي واغلقتُ غرفتي، وعندما رنّ جرسُ الشارع، نظرتُ من ثقب المفتاح وأنا أحبسُ أنفاسي في صدري خوفاً من أن يلحقوني أنا أيضاً ، ويمزّقون مستنداتي ويأخذونني معهم. ويُلبسونني الزيَّ العسكري.

كانوا يقتلونني.. يصيبونني بالكوابيس

يقولون: "قاتِل"... وماذا لو قاتلت؟

كان الجوُّ بارداً، وكانت يدي وقدمي تهتزّ.

لم يغِب ابن خليفة عطا عن نظري وعن ذهني وعن ذاكرتي قط.

لقد كان عمره أربعةَ عشرَ أو خمسةَ عشرَ عامًا، وربما ستة عشر عامًا.. لم أهتم كم كان عمره.

لكن المهم بالنسبةِ لي أنه كان أصغرَ مني ببضعِ سنوات..انه لا يزال صغيراً، فكيف تم ضمُّه للجندية، وكيف يرتدي الملابس العسكرية في هذا السنّ.

لم يكن يعرف كيف يقاتل. لقد كان قادرًا فقط على الشجار مع جميع أطفال الشوارع القدامى لدَينا.

وقد تم نقلُ آبائهم إلى العسكرية.. لقد جعلوا الزقاقَ خالياً من الرجالِ والأطفال.. تم أخذ تلك المجموعة من زقاقنا القديم ،الذي خلا من التجمُّع والصدق والمحبة.

ربما كانوا يحتاجون إلى الناسِ والجنودِ لقتلِ الآخرين..

مهما كان الأمر، فإنه لم يكن من شأني. كان من المهم بالنسبة لي أنني لا أعرف الحرب.

كما أن طفل خليفة عطا لم يكن يعرف كيف يقاتل، كما يعرف أطفال الشوارع الآخرون كيف يقاتلون.

قضيتُ أيامي أفكر في خليفة عطا وغيره من الأطفال في حارتنا القديمة.

كنت أفكر أيضا في نفسي.. كنت أفكر أنهم إذا أخذوني إلى العسكرية، فسلبسونني زيّ الجندية ويعطونني بندقية، فإذا قالوا : "اقتُل"لا أستطيع.

كم يومًا أمضيت في التفكير بذلك!
لقد مرّت بضعةُ أسابيع منذ ذلك اليوم.. وفي أحد الأيام قررتُ أن أذهبَ وأكتشفَ أمرَ طفل خليفة عطا، فتوجهتُ نحو ذلك الزقاق وأنا أحملُ آلافَ المخاوف والمحاذير.
لم أكن قد دخلتُ الزقاقَ بعد، فتوقّفت، وتحدثتُ مع نفسي: أذهب، او لا أذهب!
أحيانًا كان قلبي يطلبُ مني أن أذهب، وأحيانًا كنتُ أقول ألا أذهب. كنتُ أتساءلُ ماذا أفعل ؟
تفاجأتُ بالزمنِ وبالحياة. وأتساءل هل سأدخل الشارعَ أم لا.
سحبتني قوةٌ غيرُ مرئيةٍ إلى الزقاق.. بمجرد دخولي الزقاق، تفاجأت...شعرتُ بالرعبِ عندما وجدتُ أن جميعَ المتاجر مُغلقة.. ذهبتُ أبعد وأبعد..نفسُ الشئ.. ذهبتُ بالقربِ من متجر خليفة عطا.. كان متجرُه مغلقاً أيضا... قلت لنفسي :
- أين هؤلاء؟ هل تم أخذُهم جميعاً بعيدا؟ هل ارتدى الجميعُ الزيَّ العسكري؟
كان الزقاقُ خالياً ؟ وتحت أشعةِ الشمسِ الحارقةِ كنتّ أئِنُّ من وهجِها الذي ازعجَ عيني.. كانت الحرارةُ مرتفعةً جداً،
وكنتُ عطشاناً.. يلتصقُ العطشُ بحنَكي...

انجذب نظري إلى ماسورةِ المياه، التي كانت موجودةً على الجانبِ الآخر من الزقاق، دائمًا في الماضي كان كلُّ واحد، طفلاً كان أو شيخاً او امرأة ، كان يحاول ألا يفوّت دوره. ولكن الآن لا يُوجَد ماء...

لقد كان واقفًا هناك العطشانُ مثلي، الذي كان يحترق، وكنتُ عطشانًا أيضًا.. أحترقُ من العطش.

ومع عطشي ووهَني ، واصلتُ السيرَ بعيدًا...

رأيت الناسَ يقفون بالقربِ من منزل خليفة عطا. فاقتربتُ منه ووصلتِ إلى الحشدِ الذي هناك، فوجدتهم قد خفضوا رؤوسَهم في بكاء، وكان كلّ واحدٍ يجلسُ بجانب الآخر، وكانتِ النساءُ يرتدين عباءاتٍ بيضاء.

يضرب كلٌّ منهم راسَه ووجهَه وصدرَه بقبضتَيه، ويلعن الأرضَ والزمان، فدفعتُ أحدَهم جانبًا، وسألتُه عما حدث..

قال وغضبُه يقبضُ على بطنه :

- الليلة الماضية، كانت الساعةُ منتصف الليل تمامًا عندما تم إحضارُ جثةِ طفل خليفة عطا..لقد قُتلَ في الحرب.. نعم.

الليلةَ الماضية أُحضِرالقتيلُ إلى منزلِه وقالوا له :

- لقد تم اكتشافُ طفلِك ميّتاً! تم وضعُ جثتِه الملطّخة بالدم في منتصفِ الغُرفة، وكان يجلسُ حولَه عددٌ كبيرٌ من النساءِ والرجال، يئنّون ويصرخون مع والدتِه، وكان دمه لا يزال طازجاً.. رائحةُ الدمِ ملأتِ الغرفة.. وحاولت والدتُه عدةَ مراتٍ مسحَ الدمِ عن وجهِه بعباءتِها، لقد كان عارياً..

لم يكن لديه أيُّ شيءٍ على جسدِه ولم يرَه أحدٌ عارياً من قبل، لكن الآن لم يعد الأمرِ يهم بالنسبةِ له أو للآخرين.

أخذوه جنديًّا طفلاً، والآن أحضروه قتيلاً وجثَّتُه أمامَ الجميع.

ولا يزال دمُه طازجًا.

كما قامت أمّهاتٌ أخريات قُتل أبنائُهن بتقبيلِ رأسِه ووجهِه كانوا يعتبرونه طفلهم ، وكان أطفالُهم أيضًا نصفَ ناضجين وصغارًا، قُتلوا بالقوة.. قد أخذوهم إلى العسكرية وبعد فترةٍ أحضروهم موتى وقالوا لكُلّ واحدةٍ منهن:

لقد قُتل طفلُك.. وكانواقد دَفنوا بعضَهم هناك بأنفسهم، وقالوا لأمهاتهم :

"كان الطقسُ حارًّا، ولم نتمكَّن من إحضارِه. كان جسدُه مُشوهًا، وكانت تفوحِ منه رائحةٌ عفِنة..دفنوهم اينما ارادوا..

لقد نسوا مَن دُفِن لديهم واين؟

وفي بعض الأحيان كانوا يدفنون عدةَ أشخاصٍ في قبرٍ واحد، وقد أصبح هذا أمراً طبيعياً بالنسبة لهم.

بالنسبة لهم، كان قتلِ الجنود أيضًا أمرًا عاديًا، مثلَ شُربِ الشاي أو تدخينِ السجائر أو شُربِ الفودكا، وإذا قُتل طفلٌ ينزلون إلى شوارعِ المدينةِ في اليوم التالي، ويأخذون طفلاً آخرَ مكانه.

أصرّت الأمُّ بشدةٍ على إحضارِ طفلِها المتوفّي إلى المدينة..

إلى مقبرتِها.

******

فجأةً.. كان هناك ضجيجٌ في الرَّدهة.. نهض بعضُ الرجالِ ممَّن كانوا في القاعةِ وانضموا إلى المحادثة.. وقد تابعتِهم لمعرفةِ السبب ، فتجاذبوا الحديثَ وقالوا:

- علينا أن نأخذَه وندفنَه. الطقسُ حارٌّ جداً.. ففعلوا واستعدوا لأخذِه. لكن والدتَه قالت إنها تريدُ ابنَها.. تنظر إليه وهو ملطخٌ بالدماء أمامها، وأخذت تبكي....

وكانت والدتِه تصفّفُ الشَّعر..صفّفت لجميعِ النساءِ شعرَهن.

وكانت جميعِ النساءِ يبكين وجميعُهن أحبُّوه. لقد كان مخطوباً للتوّ..

في زقاقِنا القديم، بمجَرَّد أن يُصبحَ الطفلُ صبيًّا، تتم خطبتُه.
لقد انخرطوا للتوّ في البكاء، بعد أن كانوا يفكرون في حفل زفافِه.

كان والدُه قد طلب زهورَ زفافه من محلِّ زهور جارهم...
اختفى والدُه فجأة، وتساءل الجميعُ أين ذهب؟ قال أحدُهم إنه غادر بسبب الحُزن الشديد على ولدِه، ولم ير هذا المشهد.
وقال آخر: إنه ربما أراد أن يسبقَ الآخرين الى المقبرة.
لكن المحادثات لم تنتهِ عندما تم العثورُ على والده مرةً أخرى.
لقد طلب للتوِّ زهورَ حفلِ زفاف ابنِه من محلِّ بيع الزهور المجاور..اقترب من الغزالين.. لقد فوجئ الجميعُ به ، وكان يقترب ويحمل الخوانش على رأسه وهو ينادي :
- أيها الناس، كان (باخوم) مخطوبًا حديثًا.. كنت أفكر فيه، فجعلني أبكي.. بكيت كثيرا. كان الجميعُ يبكون ، وكانت الشمسُ تشرق بقوة.. كان لها دفءٌ خانقٌ لا يُنسى. تنفذُ اشعتُها من الأبوابِ والجدران، و كانت الحرارةُ مرتفعة. وربما تحولت الشمس إلى درجة حرارتها القصوى بسبب تلك الحادثة.

كنت أعرفهم، كان كلُّ الرجال يبكون، فقد امتلأت المقابرُ بجُثث أبنائهم.

وصلنا إلى المقبرةِ ووضعوا بالقربِ من قبرِه الجثةَ التي تم تجهيزها له مسبقاً.

وفجأة بدا لي أن جميعَ الشبابِ الذين قُتلوا كانوا مُلطّخين بالدماء،وأنهم قاموا من قبورِهم،وكانت دماؤهم بلا انقطاع.

وبدا لي أنهم ما زالوا ينزفون باتجاهِ جثةِ نجل خليفة عطا..

ربما أرادوا التعاطف معه، لأنهم كانوا مُجبَرين أيضًا،

وكان العسكري عبداً. أرادوا القتالَ فقاتلهم العدوّ بالقوة وقُتلوا في الحرب.

عندما شممتُ الهواءَ المملوءَ برائحةِ الدماء الطازجة، أُغمي عليّ.

كانوا يضربون مثلَ بيتِ النحل وشعرتُ أن شخصًا ما كان يلمسُ رأسي وعقلي، أو كانهم يضربون بمطرقة.

كنت أفقدُ القدرةَ على الوقوفِ ببطء. وضعتُ يدي على أذني بشكلٍ لا إرادي.. غادرتُ وصرختُ صرخةً عالية جدًا.

ماذا عساي أن أقول؟

لم أستطع تحمُّل البقاء هناك بعد ذلك.. وبينما كنتُ أصرخ،

هربت.. نظرتُ خلفي أثناءَ الركض...كنت خائفاً من ذلك، ومن هؤلاء الشبابِ أن يواجهونني ويقولوا:

- لماذا أنتَ على قيدِ الحياة؟ لماذا لم تُقتَل؟ يجب أن يتم نقلك أيضًا إلى العسكرية، ويجب أن تُقتَل في الحرب.

لقد علموا أنني مريض. تم إعفائي بسببِ عجزي،ولديّ الوثيقةُ التي تُثبت ذلك.

بينما كنتُ مسرعًا نحو المنزل أتصبَّبُ عرقًا ، لم أنظر إلى الوراءِ أبدًا. وعندما وصلتُ إلى المنزل، أغلقتُ بابَ غرفتي خلفي واستمعتُ بخوفٍ لجرسِ بوابةِ الزقاق... كنتُ أحسبُ اللحظات.. كنتُ خائفاً..و في كل مرة يرِنّ جرس الباب

كنتُ أرتعشُ في كلِّ مكان، وعَيني على ثُقبِ المِفتاح في غرفتي.

كنتُ اضعُ عيني على ثُقب المفتاح لبضعِ لحظات. كنتُ أيضاً أشمُّ رائحةَ الدمِ من أنفي..لقد كان في كل مكانٍ ذهبتُ إليه، وليس بعيداً. كانت هناك رائحةُ الدم، رائحة الدم الطازج.

الشبابُ الذين قُتلوا في العسكرية. يُمكنكَ أن تشعرَ برائحةِ دمائهم..كنتُ أشمّ رائحةَ دمائهم في كلِّ مكان.. في غرفتي،

في الرَّدهة، في الزِّقاق، السوق والطريق، في الحمام، في مكتبي، في الباب و في كلِّ مكان.. رائحةُ الدم جعلتني أشعرُ بالمرض أكثر.

******

مرّت أيامٌ وشهورٌ منذ ذلك اليوم ، منذ ذلك اليوم الصَّيفي الحارّ..

ظلّت الذكرى محفورةً في ذهني المتألِّم، ذلك اليوم الذي أصبح فيه عقلي الجريح أكثرَ جرحاً، وجسدي المريض أكثرَ مرضا..

كان جسدي مريضًا جدًا لدرجة أنني لم أستطع

أن أعبُرَ ذلك الزقاق مرة أخرى، الأزقّة التي قضيتُ فيها طفولتي.

لقد كبرَ سنّي، وقررتُ أن أعودَ إلى كلِّ ذكرياتِ الطفولةِ السعيدة.

سأدفنُ شبابي في تلك الذكرياتِ إلى الأبد، وإلا فلن أتمكن من الذهاب إلى هناك بعد الآن.. لم أحب أن أكون بعيدًا عن هناك.

****

وبعد مرورِ بعضُ الوقت، كنتُ أنظر ذاتَ يومٍ إلى تقويمِ السنواتِ الماضية.. أحاولُ أن أتذكرَ بشكلٍ صحيحٍ ذلك اليوم.. اليوم الذي تُمرضني ذكرياتُه.

ورغم ذلك، ورغم أحزانِ الحياة وآلامِها الأخرى الملفوفة

كشبكاتِ العنكبوت، قررتُ الذهابَ إلى هناك.
ورغم أنّ الجوَّ كان حاراً في ذلك اليوم، ذهبتُ لزيارة ذلك الزقاق مرةً أخرى ، زقاقِنا القديم.
كانت أشعةُ الشمسِ تشرقُ على الأرضِ بحرارةٍ شديدة.
بمجرد أن خطوتُ الخطوةَ الأولى في الزقاق، توقّفتُ فجأة في مكاني وقلتُ باستغراب :
- يا إلهي! ماذا أرى؟
لقد كان الأمرُ مفاجئًا حقًا، فالزقاقُ في دمارٍ وخرابٍ وحِدادٍ وبلاء، في كل البيوتِ والمحلاتِ والأسواق، ولم يبقَ سوى أكوامٍ من التراب. قلتُ تحت ضغط أنفاسي مرةً أخرى:
- يا إلهي ؟ ما هذا الذي أرى؟ أين هو ذلك الزقاق والمَمر؟
فلم يكُن هناك مايُنبئُ عن حياةٍ فيه !
فقلت لنفسي مرةً أخرى:
- إلهي! أين ذهب كلُّ هؤلاء الناس؟ أين ذهبَت كل تلك الفتيات الصغيرات ذوات القلوب النقية ؟ وأين المخلصون والصادقون!
أين ذهبَت كلُّ تلك المحلاتِ التجاريةِ والباعةِ الجائلين؟
ذهب ابنُ خليفة عطا إلى الأرضِ مرةً واحدة وإلى الأبد. خلال دقائق قليلة تجوّلتُ هنا وهناك، لم أرَ شيئاً باستثناء كلبَين

يعويان، كان أحدهما يعرُج وهو على قيد الحياة، يقوم هذان الكلبان الضعيفان اللذان يعويان بالبحثِ تحت الأنقاضِ عن شيءٍ صالحٍ للأكل. نظر إليّ الاثنان مُحرَجَين.. كانوا يخجلون من الدمار والخراب. لقد مرُّوا بجانبي كما لو كانوا يخجلون بالفعل، ووقفوا على الجانب الآخر. لقد أداروا رؤوسهم إلى الوراء ونظروا إليَّ بعيونٍ مريضة. بدا عليهما وكأنَّ الدموع تجري من عيونهم التي قد أُغلِقَت بسببِ الذباب الذي كان عليها. وكانت شفاهُهم وأعناقُهم ممتلئةً أيضًا بالذباب.

كان الذبابُ يطير، يبحثُ عن طعام ، وطعامُهم في حضرةِ هذَين الكلبين.. كانا بالنسبة له افضلَ طعام، إذ كان يحصل على طعامِه من الكلاب.

ولا يهمُّني سواءَ بحثوا أم لا.. كان من المهم بالنسبةِ لي أن أغادرَ هذا الزقاق.

ولم يكن هناك سوقٌ للأخبار.. ذلك الزقاقُ التي اعتاد كثيرٌ من الناسِ السفرَ فيه، وكانت محلاتُه مُصطفّة على جانب القطار، وكان العملُ فيه حتى ساعاتٍ متأخرةٍ من الليل

.. لقد كان مزدحماً دائماً.

لقد تجاهلتُ تمامًا وجود هذَين الكلبين وذبابَهما.

ذهبتُ نحو الأنقاض. لم أتقدم بضع خطواتٍ قبل أن يناديني صوت.. تسمّرتُ مكاني.. أدرتُ رأسي إلى الوراء.. رأيتُ هذَين الكلبَين متشبّثين بي.

وفي لحظة متوتّرة، هدأ الاثنان مرةً أخرى، وطار الذبابُ بعيدًا عن رؤوسهم ووجوههم ، وواصلوا المسيرَ خلفي، وجلسوا مرةً اخرى حيث جلستُ انظر إلى الشقوقِ التي

ظهرت تحت أكوامِ التراب.

لقد كانوا يتباهون ، وكنت أعرفُ أيَّ جزءٍ من الممر والزقاق. كنتُ متفاجئاً من حالة الدمار..أنظر في كلّ مكان..

كان كل شئ كومة من الغبار.

عددٌ قليلٌ من المنازل شبه المدمَّرة التي لم يتم تدميرها بالكامل بعد، لكنها كانت في حالة متداعية ، ومازلتُ أتجه نحو تلك المنازل بأرجلٍ ضعيفة، حيث الذعرِ والخوفُ يضغطان عليّ بمخالبهم.

وقفتُ هناك لبضعِ دقائق. ولم يكن هناك أخبارٌ عن أيِّ شخصٍ هناك ، ونظرتُ بعيداً... ناديتُ عدةَ مرات :

- هل هذا جاكي؟

لكنني لم أسمع إجابة. لقد بحثتُ عنه لمعرفة ما إذا كان أي شخص يعيش هناك؟

لا؟ طرقتُ ببطءٍ بوابةَ أحد المنازل. لكن لم يردّ أحد.. أفتحُ البابَ ببطء، وعندما جاء صوت "غاج" العالي من الباب، تأثرتُ بهذا الصوت.

كنت وحدي في "سنهم مزاد".. كنتُ خائفاً.. لقد أصبح المكان بأكمله مخيفًا وتوقفتُ فجأة.. دخلتُ البيت،ومن الخوف جلس العرقُ البارد على جبهتي.

وعندما دخلت البيت، ناديتُ مرةً أخرى:

- هل يوجَد أحدٌ هنا؟

ولم أسمع إجابةً مرةً أخرى، فغادرتُ في وقتٍ مبكرٍ قليلاً. لقد اكتشفتُ أن كالكين هو واحدٍ من الغرف، نظر شخصٌ ما إلى البيت وانسحب مرة أخرى.. كانت ساقاي ترتجفان..كل ما نظرتُ إليه بدا مُرعباً، ومزعجاً..الخشب، والحجر، والطين والباب والجدار.. قلتُ لنفسي:

- لا بد لي من العودة والذهاب.

لكنني لا أعرف لماذا لم أذهب. وبدلاً من العودة والمغادرة، ذهبتِ إلى غرفة السروج، لكني تدحرجت وسقطتُ على الأرض.

نفضتُ يدي وملابسي من التراب ، وحاولتُ النهوضَ مرة أخرى. هذه المرة تسلقتُ بعنايةٍ من الزاويةِ الأخرى.وعندما وصلتُ إلى القاعة، وكان هناك غرفتان، واحدةٌ على الجانب الأيمن من القاعة والأخرى على اليسار.

ولكن لا يُمكن سماع أي صوتٍ من كلّ واحد منهم دون توقُّف طويل.. فتحتُ البابَ ببطءٍ وبهدوء، وسمعتُ صوتًا عاليًا لرجُلٍ عجوز يجلس في زاوية الغرفة وبجانبِه امرأةٌ عجوز، وكان واضحاً من وجوههم أنهم كانوا خائفين للغاية. وكنت خائفا أيضاً مثلهم.. كانوا يجلسون بالقرب من بعضهم البعض ويعانقون ركبهم، وكانوا يرتجفون. على الرغم من أن الطقس حار.. كلاهما كانا يرتجف، ليس من البرد،ولكن من الخوف.. هم كانوا خائفين مني.. طمأنتهم.. ظلوا ينظرون إليّ دون الإجابةِ على سؤالي...

عيونُهم تُظهر الكراهيةَ الشديدةَ تجاهي. تجاهلتُ نظراتِ كرههم لي.. جلستُ عند نفسِ البوابة..جذبني وجهُ الرجل العجوز كثيرًا...بحثتُ عنه في عقلي الجريح والمريض، تذكّرته.. قلتُ لنفسي :

أين رأيتُ هذا الرجل؟

لقد رأيتُه في مكان ما وبدا مألوفًا. لقد ذهب منزلهم أيضًا..
وهذه المرأةُ أيضاً.. وبعد ضغطٍ كبيرٍ على ذهني، تعرفتُ عليها.
كان (أتاي) بالفعل كبيرًا في السن وضعيفًا ومكسورًا. وكانت زوجته أيضًا عجوزًا وعاجزة. منزل "شان" أيضا
لا يزال في حالة خراب.. هذه السنوات القليلة جعلت الجميع كبارًا ومكسورين، لكن (خليفة عطا) كان أكبرَ سناً ومكسوراً، وعيونه غائرة ووجهه عَظميّ..كان يشبهُ هيكل عظمي يُرثَى له..
امتلأ قلبي بالحزنِ وقلتُ لنفسي مرةً أخرى:
- لماذا حدث هذا؟
ذات مرة، ذهبتُ إلى السوق، إلى المتاجر المليئة بالعملاء، من نقاءٍ وصدقٍ ومروءةٍ وطهارة ، ومحبةٍ ومودّة وتعاون بينهم.
أدركتُ فجأةً أن (خليفة عطا) يريد النهوض، لكنه كان معاقًا تمامًا وظهرُه منحنيًا، وكان من الصعب عليه المشي. وضع يدَيه على نظارته أثناء المشي، وجاء ببطء، وركع أمامي مباشرةً ودون أن يسألني، اويقول شيئاً، فتح قبضتَيه المشدودة وأمسك صورة، والدموع في عينيه، وأشار بيدَيه وأخبرني أن اليوم

سيأتي الرجالُ المُلتحين يحملون أسلحة، وبما أنهم احتلوا المدينةَ للتوّ، فقد ذهب إلى منزلهم والتقط جميعَ صورِهم مع العديد من الأشياء القديمة والثمينة في حياتهم، والتي فقدها لعدةِ سنوات، وتم إشعالُ النار في آخر ما تم إنقاذه. وتمكن من العثور على هذه الصورة لابنه، التي تم حرق نصفها. وبعد لحظاتٍ قليلةٍ رأى صورةَ ابنه نصف المحروقة الذي كان مراهقًا في العسكرية.. لقد قُتل.. وانتزعها من يدي مرةً أخرى، وكانت يداه ترتجفان بعنف، وضغط بقوةٍ على صدره.

بدا لي أنه كان ينزفُ من صورةِ ابنه نصف المحترقة. بدا لي أن يدَي (الخليفة عطا) مملوءةٌ بالدماء. والغرفة بأكملها مليئة بالدماء. مليئة بالدماء الجديدة التي انتشرت في كل مكان ورائحةُ الدمِ ملأت المكانَ كله.

1997_ألمانيا

(١٠)
"مرض الزهايمر"

كم مضى من الوقت، رُبَّما خَمس أو سِتّ سنوات، أو ربما ق ثماني سنوات، هل تتذكر؟

أليس هذا منذُ كم سنةٍ مضت؟ حسنًا، لا يهم كم سنة مضت، ما يهم في ذلك الوقت، أنّي كنت جالسًا فوق هذه الأريكة مباشرةً، ولم يكن هناك كهرباء وكنت تقرأ كتابَ "الحياة.. الحربُ ولا شيء غير ذلك" على ضوء مصباح تيلي.

وفي نفس الكتاب، وبينما كنتَ تقرأ، رفعت رأسك فجأة ولا إراديًا وسقطَت عيناك على الحائط فنظرتَ إلى صورةِ الظل اللامع لزوجتك وهي تحمل طفلك على الحائط.

ساعتها تذكرت على الفور صورة الأم (مريم)

والمجلة التي اختارتها العام الماضي من بين كتبك؟

لقد أبقيتَ الشيءَ مقدسًا بالنسبة لك، تلك الصورةُ المرسومةُ هي رمزُ القداسة، وكانت براءةُ الأم، التي كانت رسّامة عظيمة،

ذات أناقة وجمال، وكان لديها قدرة خاصة على الرسم في عصر النهضة . مريم العذراء بالشعر كانت ترتدي ملابسها وسقطت العباءةُ على الجليد والمسيح عاريا بين ذراعيها.

في كلِّ مرةٍ تنظر فيها إلى تلك الصورة، يظهر وجهُ القداسة، الوجهُ المجيد وقدسية الام. ولكن في تلك اللحظة، رأيت براءةَ الأم في صورة زوجتك على الحائط.. صورة زوجتك ورأسُها كان منحنيًا على جانبَيها وتنام مع الأطفال.

الصورة المقدسة للظلِّ الساطع على الحائط الذي رأيتَه، قلمك للكتاب.. وضعتَه جانبًا، والكتاب أغلقتَه، محدقًا في الصورة بعُمقٌ للحظاتٍ ثم قلت : قم وخذ أطفالك من حضن أمهم وخذهم إلى مكانهم.. لم تكن قد استيقظت حتى عندما رن باب شقتك.

لقد تسمّرتَ على الفور في مكانك وسقطتَ في هذا الفكر الذي كان في قلب الليل.

من خلف البوابة؟ كنتَ لا تزال تبحث عن إجابة لسؤالك في عقلك..

سُمع صوتُ البوابة مرة أخرى، وهذه المرة بصوت أعلى. من صوت البوابة تستيقظ زوجتك أيضًا

قفزَت وسألَت بخوف:

- من الذي جاء في هذه الليلة المُبكّرة؟

وقلتَ لزوجتك:

- أنا أفكّر بنفسِ الطريقة، من هو؟

المرأةُ التي كان خوفُها وقلقُها واضحَين في صوتِها الذي تقطّع وقالت:

انا ذاهبة لرؤيةِ من هو!

وقمتَ مسرعاً، وعشرات الأسئلة في زاوية البيتِ الحزين

وجدتَ عقلك، فأشرتَ بيدك إليه ليكون في مكانه ولم تدعه في برود، ذهبت لترى من يقف خلف الباب.

عندما وصلت إلى البوابة سألت بخوف :

من هذا؟

وعندما طُرِق البابِ مرةً أخرى،سمعت من يقول:

افتح.. افتح البوابة!

سألت ذلك الصوت غير المألوف، فوجد الخوف والذعر طريقه إلى داخلك.

من أنت؟

ومن الجانبِ الآخر من البوابةِ ارتفع الصوتُ مرةً أخرى وقال :

افتح البوابة! افتحها وإلا سنفتح البوابةَ بمضرب!

لم تصدق ما سمعته. كأنك كنت مُخدَّراً.. لقد افسدت،

بينما كنتَ مذهولًا ومندهشاً ، فتحت البوابة..

فأطلقوا أربع أو خمس بنادق على منزلك، وفي غمضة عين، واقتحموا الرَّدهة و رائحةُ العرقِ النفّاذة ورائحةُ الحشيش تنبعثُ من رؤوسِهم ووجوهِهم..

لقد افسدت.. لقد مرَّ وقتٌ طويل منذ أن رأيت مثل هذه الوجوه على الطرق وانت تعبر حيّك، ويعكّرون مزاجَك في كلّ مرةٍ على طرقاتِ المدينة.

يمرون بك فتشعر بالغثيان ويضطّربُ قلبُك وأنت تريد ان تذهب إلى جانب الطريق وتتقيأ على جانب الطريق. صوتُك تفوح منه رائحةُ الكراهية والاشمئزاز

سمعتك تقول لأحدهم:

ماذا تريد يا أخي؟!

كان يمسح طرفَ فمِه بطرفِ يدِه ويقول لك:

نحن نطلقُ النارَ هنا الليلة.

عند سماع هذا الخبر، هرب الدمُ من كل أجسادنا

وبدونِ انتظار أكثر، دخلوا الغرفةَ واحدًا تِلْوَ الآخر..

دخلوا.. حاولت إيقافهم، عندما أطلق عليك الآخر النار بعقب مسدس، وانت عالقٌ بالجدار، والثالث ضربك بعقب بندقيته.

***

كنت تجلس في زاويةِ الغرفة وركبتيك متقاطعتان ورأسك على ركبتيك، وربطوا أرجلَكم بالشال. كان رأسُك ووجهُك ملطَّخين بالدماء وكانت عيناك منتفختين.

لقد كانت ولا يمكن فتحها بسبب شدّة إحكامها، لكن أذنيك لا تزال تسمع الصوت..

يمكنك سماعُ زوجتك تتأوه بشكلٍ صحيح. يمكنك سماعها وهي تتوسل إليك بالابتعاد عنها.

زوجتك كانت تئن. كان بإمكانك سماع أنينها وبكائها عندما سمعت استغاثتها.

كنت تتخيل وجهَ زوجتِك في عقلك وتراها بنفسك من صوتها.

تستطيع أن تراها وتسمعها بأذنيك..يمكنك أن ترى وتسمع أن زوجتك كانت تحاول الاقتراب منك.

وبقيت القوةُ في يدَيك وقدمَيك تدفعه عنها، وهو ما لم تستطع زوجتك فعله.

لقد حاولت كثيرًا، لكن جهودها كانت بلا جدوى.

أخيرًا، الأخير هو أيضًا مثل ذلك الثلاثة أو الأربعة..

وصل أحدهم إلى زوجتك وأنت تراقب بأذنيك..

كنتَ هناك وذقتَ مرارةَ ذلك المنظر. بعد ساعاتٍ من سماعِ ورؤية الأخبار الحزينة في حياتك، كنت تتلوّى من الألم في زاويةِ الغرفة وكان صوتُ زوجتِك حزيناً ومتخثِّراً وهي تتنفّس.

***

والآن، بعد سنواتٍ عديدة، أنت وزوجتك تجلسان في نفس المنزل كما في مقالتك..

(ساراف) منحنية على رقبتِها ولا تستطيع النظر إليك.

في كل مرة تنظر نحوك وفي عينيك، وتذوب مثل بلورة الجليد في أتون النار.

ما زالت غير قادرة على النظر إليك بسبب تلك الليلة، لكنك منجذبٌ إليها أكثر

نظرتَ في عينيها.. نظرتَ في عينيها ولكن لا يمكنك تذكُّر أيّ شيء. كلُّ شيءٍ غريبٌ وغيرُ مألوف بالنسبة لك. كل شئ

في عقلك مُغلق، ونسيت كل شيء.. الزوجة والأطفال وحتى تلك الصورة المحبوبة، وصورة مريم القديسة. بعد تلك الليلة التي تغلبواعليك فيها، وأنت مصاب بمرض الزهايمر.

النهاية

الفهرس

.1	الإهداء	3
.2	الشاعر في سطور	5
.3	قراءة نقدية	8
.4	امرأة	13
.5	وجهاً لوجه مع قاتلك	36
.6	كنتِ تنتظري	42
.7	جائع	46
.8	بين حجرين	53
.9	سكرتير مدرستنا	60
.10	الملاحظة الأخيرة	73
.11	المحكمة	80
.12	حارتنا القديمة	89
.13	مرض الزهايمر	111
.14	الفهرس	119

لقد وقعتَ على الأرض، وسقوطُك على الأرض جعلكَ تشعر بالحُزن.
اشتقتُ لك لفترة طويلة، كما كنتُ اشتاق لك من قبل.
سنواتُ الحياةِ تمتصنا، مثل النحلة التي تمتص الرحيق.
الآن.. تشتاقُ للسقوطِ على الأرض وتريدُ مغادرةَ مكانك...
استيقظ...
تريدُ النهوضَ وتحمل رأسَ ابنتِك بين ذراعَيك كما هو الحال دائمًا.
مهما حدث انهضوا.. يمكنُكم النهوض أيها الرجال.

المترجم:

الاسم : حامد محمد حامد حبيب (حامد حبيب) - ميت ابو على_الزقازيق_مصر

صدر له من ترجماته:

_ ديوان"٧٥مقبرة في قلب شنجال "من العربية للإنجليزية للشاعر العراقي /خالد الشيخ [دار المتن -بغداد]

_ رواية"عالم الغجر" من العربية للإنجليزية - للكاتبة / إلهام حسنين رضوان_مصر

"مختارات من الشعر الفارسي"[وكالة كنزي للنشر].

_ديوان"خلف المدينة الزجاجية"من الفارسية للعربية للشاعرة/ شكيلا شعله [دار الربيع للصحافة والإعلام]-مصر